خالد محمد خالد



في البدء كانت الكلمة

المقطم
للنشر والتوزيع

في البدء كان الكلمة

خالد محمد خالد

في البدء كان الكلمة

المقطم
للنشر والتوزيع



القاهرة-مصر
٥٠ شارع الشيخ ريحان- عابدين

Tel: (00202) 7958215
7946109
Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

في هذا الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَة

موضوعُ هذا الكتاب يتلخَّص في أنَّ حرية الكلمة «حقٌّ مُطلَق» لا يخضع لأي اعتبار، ولا يملك قانونٌ حقَّ تقييده، ولا يملك عُرفٌ حق تحديده.

ونعني بالكلمة هنا، تلك الأداةَ العاقلة التي يُعبِّر بها الفكر الإنساني عن ذاتِه.

فحرية الكلمة شيء آخر، أكبر قدرًا، وأوفى قَداسةً، من حرية اللَّغْو، والشَّغَب، والمُهاتَرة.

والذي يميِّزُ «الكلمة» من «اللَّغو» هو الفِكر نفسُه.. والفكرُ وحدَه.

° ° °

حرية الكلمة بهذا المفهوم. حق مُطلق.

ولقد يُسارع بعضُ القراء إلى الظن بأننا نُعطي « الكلمة » أهمية مُفرِطَة ، وأننا نكتب في هذه الصفحات بحثًا تجريديا ؛ مادُمْنا نتحدث عن « الحق المُطْلَق » في عالَمٍ كُلُّ أموره وحقوقه نِسْبيَّة .

بَيْدَ أنَّه من الخير لأصحاب هذا الظن – إن وجُدوا – ألاَّ يتعجَّلوا ظُنونهم ؛ وأَن يُقبلوا على قراءة البحث مطمئنين إلى أنه يستمدُّ من الواقع جوهَره وشكلَه .

ولقد آثرنا في دراستنا هذا الموضوع أن تكون صِلَتُنا بالواقع أوسعَ أبعادًا ، وأرحبَ آفاقًا .

وكان السبيلُ لهذا ، أَن نُناقش القضية في مستواها العالَمي والتاريخي .

ذلك أن « حرية الكلمة » لم تُعانِ أزماتها في جيلنا وحده . بل عَبْر التاريخ كله .

وهي اليوم ، لا تعاني أزماتها في بلدٍ . ولا في اثنين . ولا في عشرة . . بل إن تسعة أعشار المجتمعات والحكومات في عالمنا كلِه ، لَتُسْهِمُ في إزْجاءِ الأسباب التي تجعل حرية الكلمة في أزمة .

° ° °

ونحن نُشخَص هذا الوَضع بأنه « أزْمَة » . .

وهناك مفكرون لا يرونه كذلك . . ويرون أن هذا الذي نحسبه أزمة . . ليس إلاَّ مرحلة جديدة في تطور الحرية. ليس إلا مفهوما جديدًا وشكلا جديدًا يحقق بهما جوهر الحرية ذاتَه .

ولكلٍّ رأيُه . . وواجبنا أن نحترم كل رأي مهما يكن مغايرًا ومناهضا ، ولكنْ من حقنا كذلك أن نعرض وجهة نظرنا ما دمنا بها مقتنعين .

بهذا ما نحاوله في هذه الصفحات .

° ° °

ولستُ أزعم أنني أوفيتُ على الغاية في بحث القضية المعروضة هنا .

ولعلّ السبب في هذا أنني لم أتعود أبدا ، ولا أريد أن أعْتَادَ أبدا ، الوقوفَ من قرائي موقفَ المعلِّم أو الأستاذ . إنني مجرد واحد منهم ، يأخذ مكانه بينهم جميعًا ، ليتدارس معهم الفكرة التي تدور حولها خواطرُه ، مكتفيًا من القول . ومن الحُجّة بما يمكن أن يكون نُقطة انطلاقٍ لتفكير الآخرين وحوارهم . .

° ° °

ولقد بدأتُ بالحديث عن الكلمة باعتبارها «وَثيقةَ

الآدميّة » لكل البشر . .

• ثم عرضتُ في إيجازٍ لقصة الصراع بين السُّلطة ، والكلمة ، محاولا أن أهتدي إلى الدرس الذي يعلمنا إياه ذلك الصراع . .

• ثم عرضتُ رأيي في أنَّ حرية الكلمة « حق مطلق » ، وفي أن الاقتناع بهذا ، هو سبيل البشرية الأمثل إلى تثبيت خُطاها المُجهدة . .

• ثم تحدثتُ عن الكلمة حين تكون : لا . . . أعني حين تأخذ دور المناقشَة والمعارضة . ورأيت أنها في دوْرها هذا ، أبرُّ صديق للشعوب وللحكومات معا . .

• ثم تحدثت عن الكلمة في وَطَنها الأوَّل . . في عقل الإنسان ، وحاولت أن أعرف واجب الكُتّاب وحَمَلَة الأقلام تجاهَ الكلمة .

هكذا سِرْتُ بالحديث عبر هذه الصفحات التي هي أشْبهُ بالنِّداء ، منها بالكِتاب .

• • •

تُرى ، هل بقي شيء أريد أن أَقوله في هذه المقدمة . . ؟

أجَـل . .

أريد أن أقول للقارىء : إذا كنت ستقرأ هذا الكتاب

كَلِمَةً كلمة ؛ فعليك أن تُناقشه كلمة ، كلمة . .

إن هذه الصفحات لا تطمع في أن تُعلِّمك شيئا جديدا .
وإنما تطمع في أن تَحفِزَك إلى تحريكِ عقلك في الجهات الأربع .

وتَحفزك إلى أن تُنمّي لدَيْكَ فضيلة البحث الحُرّ عن الحق .

وتَحفِزك إلى حَمْل أمانة وُجودك ؛ بأن تُناقش كلَّ ماحولَك من قضايا الوطن ، وقضايا البشَر ، وقضايا الحياة .

خالد محمد خالد

الفصل الاول

الكَلمةُ وَثيقةُ آدَميّتِنا

عاش الناس دهرًا طويلا لا يتكلمون ولا يَسْطُرون .

عاشوا .. أو عاش ذلك الرَّعِيل الأول منهم ، وهو لا يكتب ولا ينطق ولا يُبين .

كانت الإشارة الخرساء أداةَ تفاهمهم .

ولو قد طال عليهم الأمد وهم داخل هذا الحصار لظلُّوا من مَطالع الضوء جِدًّ بعيدين .

لقد كانوا يعيشون فوق ظهر الأرض الواسعة المُوحِشة : يزدحمون حول مياهها وعشبها ، مع صفوف هائلة من كائنات حية كثيرة ، من وحوش ، وأنعام ، وطيور .

وكان الجنس البشري مُمثلا في طلائعه تلك ، يخوض سباقًا ضاريًا مع بقية الكائنات .

وكانت مقادير الحياة في هذا الكوكب تُضمر في نفسها سرًّا جليلا فَحْواه أن الذي تنحلُّ عقدة لسانه أولاً ، سيجيء أولاً .. وانحلّت عقدة لسان الإنسان . وبدأ الناس يتكلمون ، فبدأت مع كلماتهم طلائع المستقبل وبشائر المصير .

آه لو نعرف أول كلمة ، تحرك بها أول لسان .. ! ! إذن

لما بَخِلنا عليها بكل صنوف التمجيد والتخليد .

فمع تلك الكلمة الأولى دقّت أجراس النصر للإنسان .

مع تلك الكلمة الأولى . أعطت المقادير إشارة البدء للقافلة البشرية وأصبح معروفًا أن لواء السيادة على هذا الكوكب سيعقد للإنسان ، وأن المستقبل كله سيدخل في طاعته ؛ وأن المجهول سيفضي له شيئًا فشيئا بأخباره وأسراره .

أجل ، مع الكلمة الأولى بدأت عظمة الإنسان ؛ ومعها أيضًا بدأ بُؤسُه .. ولكنه بؤس عظيم ! !

* * *

ونحن من تلك اللحظة المُوغِلَة في القدم إلى يومنا هذا ؛ وإلى غدنا كله . لا نُقلِّب وجوهنا في الآفاق التي ملأناها عملا وإبداعًا ، إلا رأينا الكلمة أمام كل عمل وكل إبداع .

ذلك أن الكلمة لم تكن تعني تجويفًا صوتيًا . أو همهمة تتحرك بها عضلات الحلق واللسان . بل كانت تعني ميلاد فكر جاء على شوق وقدَر ، بعد مَخاضٍ هائل اضطرمت به الحياة طوال ملايين كثيرة من السنين .. ولم تتحرك ألسنة طلائعنا الأولى ساعة تحركت إلا تحت وطأة ثِقَل الفكر الإنساني واحْتِشاده . وصحيح أنه في ذلك العهد البعيد لم يكن مع الإنسان فكر بالمفهوم المعاصر للفكر . بَيْدَ أنَّه كان طاقة كبيرة تَموزُ مَوْرًا بالأحاسيس الغامرة ؛ والاستعداد المواتي .

والأشواق المبهمة .

ولقد بدأنا نعي وجودنا يوم تكلمنا . .

شرَعنا نجاوز الظلام ، ونتخطى العَمَاء ، ونخترق أسوار العزلة . . ولا نكون مُغالين إذا قلنا : إننا يومئذ – لا قبْلئذ – أُعطينا شهادة ميلادنا ، ووثيقة إنسانيتنا . . !

ذلك أنه حين فُضَّت عن الأفواه أقفالُها ، بدأت أُولى الخطوات في السيطرة على ما مَعنا وما حولنا . . بدأ الوجود الإنساني يحيا وينهض قائماً .

ولعلّ الدين يشير إلى هذه الحقيقة في لَفتته الحكيمة الباهرة حين يقول العهد الجديد « في البدء كان الكلمة » . . وإذ يقول القرآن الكريم : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، و « إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن ، فيكون » .

° ° °

ولا أعرف شيئًا يكشف عن قيمة الكلمة ، وما وراء الكلمة من فكر ، مثل أن نتصور الكوكب الذي نعيش فوقه ، وهو خالٍ من الكلمة من الفكر . . وتَصوُّر ذلك في منتهى اليُسر .

اعزل الإنسان عن هذا الكوكب . . تصوَّر الأرضَ في غياب الإنسان . وانظر ماذا ترى فيها ؟ ؟

لا ترى شيئا سوى التّيه والظلام ! حقا سيكون هناك

بحار تصطخب أمواجها ، وعواصف تزحَم الأفق بزئيرها ، ورُجُومٌ وشُهب ، ووحوش ودَواب وزواحف . . ثم ماذا ؟ ؟

لا شيء سوى الخواء ، والعَماء ، وظُلمات من فوقها ظُلمات .

وإذا فرغتَ من تأمُّل هذه الصورة فاذكر أن الأرض كانت كذلك أيضا وفيها الإنسان ، يوم كان الإنسان صامتًا لا يتكلم ، فلما نبت فيه عقله ، وتحرك لسانه بالكلمة المنطوقة ، ثم جرَت يمينه بالكلمة المسطورة أخذ وجه الأرض يتغير ، وسارت فوقها مواكب الحياة تَتْرَى .

أهناك إذن في الحياة الإنسانية كلها ، جلال يفوق جلال الكلمة ؟ ؟

أهناك غَرَض مهما تكن قَداستُه وحَتْميته ، يستحق أن تُعطَّل من أجله الكلمة وتقدم إليه قُربانًا . . ؟ ؟

إن الأمر لَيبدو ، وكأنما أُعِدَّت الأرض وهُيئت الحياة لتكونا مسرحًا للكلمة ومجالاً للفكر ليس غير . . ! !

ولو أننا نعيش في العصور الخالية ، ونكتب هذه الكلمات بأسلوب الأساطير الذي كان يكتب به شاعر مثل «هوميروس» مثلا لقلنا :

إن الإنسان الذي ودَّع المشي على أربع ، يسير بقامته المنتصبة . . والله سبحانه يرى تقلُّبَ وجهه في السماوات ،

وعَنَاءَ سَعْيه في الأرض ، وهُوَ به فَرِح وإليه ناظر . . يترقب على شوق ، اللحظةَ التي تنفرجُ فيها شَفتاه .

. . . وذات يوم ، صاح الله في وجهه : ماذا تنتظر؟ تكلَّم . . ولم يشعر الإنسان من جلال الصيحة وقوتها إلا ولسانه يسبقه ويقول : أتكلَّم . . ؟ تقول : تكلَّم . . ؟؟

وفي التَّوِّ دوَّى الكون كله بهُتاف الفرح والغبطة : لقد تكلَّم الإنسان . . لقد تكلَّم الإنسان . . ! ! واهتز مركز الكون من الفرح ، وتطايرت منه في ضخامة هائلة بعض أجزائه الفرِحَة التي كأنما جاءت تحتضن الإنسان . . فصارت قطعة منها شمساً تضيء للإنسان نهاره وتمنحه الدفء والقوة . وصارت قطعة أخرى قمراً يضيء له ليله . . وبكت السماء من الحبور والغبطة فكانت من تلك الدموع بحار الدنيا وأنهارها ، وحقدت عليه دوابُّ الأرض فسُخِّرت له ظهورها . . ! !

* * *

على أننا في غير حاجة إلى استعارة خيال كخيال « هوميروس » لِنَتَزَكَّيَ به جلال الكلمة وقيمتها .

ففي عصر العقل هذا ، وبلُغةِ العقل وحدها تستطيع الكلمة أن تبلغ من المكانة والشَّأو ما لا تطمع أسطورة في الصعود بها إليه .. فحين نرى قُوى الطبيعة اليوم مُسَخَّراتٍ للإنسان يُصرِّفها كيف شاء ، يقول لنا العقل : إن شيئاً من

هذا لم يكن سيحدث لو ظلَّ الإنسان أبكم لا ينطق ، أعمى لا يفكر. وهذه المعجزات التي تمَّت ، والتي ينادي بعضها بعضًا في عوالم الفن ، والفكر، والعلم-إنما كانت لأن الإنسان فكَّر ووعَى ، وصاغ فكره ووعيه في كلمات تَنقَّل بها تُراثه من جيل إلى جيل .

* * *

كان بدء انطلاق البشرية إذن ، يوم انزاحت عن الأفواه أقفالُها . . يومئذ أرهَصَ المصير الإنساني بكل مَغانِمه المقبلة . . ويومئذ تغيرت الأرض ، ولم تعُد من ذلك الحين غابةً ، بل صارت وطنًا . . وأقبل الناس بعضهم على بعض يكتشفون وجودهم وجوهرهم .

لقد صاروا خلْقًا جديدًا . .

إن الكلمة ساعدتهم على الإحساس بحقيقتهم . . . الإحساس بأنهم طلائع الحياة في أعلى مراحلها على هذه الأرض . . إنهم لم يعودوا والعجماوات سواء . . إنهم تَباشِيرُ النوع الجديد الذي سيحمل إرادة الله في هذا الكوكب . . إنهم أَوائِلُ هذا النوع وبَوا كيره وتَباشِيرُه ، إذن فَهم بشر . .

وهم أَناسِيّ ، فمنذ تكلموا آنسَ كل من أخيه أمْنًا ورُشْدا . . وبعد أن كانت الأرض بالصمت مكانا موحِشا ، أضْحت بالكلمة مكانًا مَأْنوسًا . . ! !

هؤلاء الناس، وهؤلاء البشر، صاروا «ناسا» وصاروا «بَشرًا» بالفكر وبالكلمة.

* * *

وحين نقول: الفكر والكلمة لا نعني شيئين مُتغايرين.. فالفكر، ووسائل التعبير عنه شيء واحد، والكلمة التي هي أوضح أدوات هذا التعبير تمثل الضوء المنبعث من الكوكب العظيم.

وحرية الفكر، تعني تماما حرية الكلمة.

وحين تفكر فأنت تتكلم حتى لو لم تَنفرج شَفَتَاك، ويتحرك لسانك؛ لأن عملية التفكير نفسها، إنما هي عملية حديث نفسي في أعلى مستويات الإدراك النفسي.

أجَل، إن التفكير حديث العقل مع نفسه، ولقد أثبتت تجارب العلم أن الحبال الصوتية تهتز حين يفكر الإنسان في صمت تفكيرا عميقا.. رباط أزلي وثيق بين الفكر والكلمة، فخَنْق الكلمة خَنْق للفكر، وخنق الفكر محاولة لإلغاء دور الإنسان ووجوده؛ لأن الإنسان – كما قلنا – لم يَصِرْ إنسانا إلا حين أنبت الله العقل في دماغه، والكلمة في لسانه وبَنَانِه.

* * *

ونحن البشر، أصحاب دوْر عظيم في كون الله العظيم. وحتى لو كان هناك كواكب مأهولة. وحتى لو يكون سكانها

وأهلوها أكثر مِنّا سَبْقًا وأكثر رُقيا فلن ينقص ذلك من عظمة دورنا شيئًا . . إنما ينقص من عظمة هذا الدور ويُلاشِيه كلُّ انتقاصٍ من سيادة الفكر وكل تحديد غير مشروع لنشاط الكلمة .

ألَسْنا نقول ونؤمن بأن المسيح ومحمدًا أخرجا الناس من الظلمات إلى النور. وأضاءا في الضمير الإنساني نورًا سدَّد خُطاه ، ووصَلَه بكل المصاير العظيمة الواعِدَةِ لبني الإنسان ؟

فلننظر إذن أية جناية على العائلة البشرية كانت ستحيق بها لو استطاعت قُوى الظلام أن تخنق الكلمات التي انبعثت من محمد وأخيه حاملةً الهدى والنور؟ !

لو أن المسيح في أُولى محاولاته ، وأُولى كلماته ساعةَ استقبل الدنيا ليقول لها « قد اقترب ملكوت الله » راح ضحية قوة باطشة ، فمن الذي كان سيملؤ سمع الحياة ووجدانها بهذا اللحن المضيء الهادر– موعظة الجبَل . . ؟ !

ومن الذي كان سيَجْبَهُ الكهنة ، المتَّجرين بالدين ، والطغاة الناهبين أجور الفعَلَة والحصَّادين . . ؟ ؟

ولو أن محمدًا حين وقف يعلن أن لا إله إلا الله ، ذهب ضحية خصومِه من أعداء الكلمة والصدق والوضوح ، فمن الذي كان سيبلِّغ رسالة الله ويتلو قرآنه ؟

من الذي كان سيرفع راية التوحيد فوق حُطام الوثنية .

ويذيع نَعْيَ أربابِ الأرض المتجبرين فيها ، وينادي الكادحين والبُسَطاء إلى يومهم الموعود ، في عالَمٍ ، الناس فيه سَوَاسِيةٌ كأَسنان المُشْط . . ؟ ؟

حقًا إن الكلمة هي الحياة . .

أطفىء الكلمة ، تنطفىء كل شموع الحياة .

أَعِدِ الألسنة إلى صمتها القديم ، واكْبَح الأقلام بالشكائِم ترجع الحياة في نفس اللحظة ، ولنفس السبب إلى بَدَاوتها ووحْشتها وظلُماتها .

• • •

والكلمة المسطورة بصفة خاصة ذات مقام عظيم ، يتناسب مع دورها العظيم .

إنها السفير الأبدي الذي لا يضع عصاه عن كاهله . . ، السَّفير الذي يقضي العمر جوَّابا بين العصور والأجيال . يَصِلُ بينها ما انقطع ، ويُحْيي ما انْدَثر .

إنها تنقل إلى كل فرد من الناس – إذا شاء – ثراء العقل البشري ورصيده ، وإنها لَتَهب الخلود لكل آثار البشر وتاريخهم .

إنها هي التي تجمعنا اليوم ، وغدًا ، وأبدًا ، بأفذاذ الخليقة ورُواد حياة الإنسان .

فـ « سُقراط » ، مثلا ، الذي اختفى عن دنيا الناس منذ

قُرابة ألفي عام وثلاثمائة وسبعين عاما – تجمعنا به الكلمة وكأنّه حي بيننا يغدو ويروح ، مُطِلاً علينا بجبهته العريضة وحكمته الكاسحة . . ! !

وهي – أعني الكلمة المسطورة – تُسْمعنا تغاريد «بوذا» عند سفوح الهملايا . . وتنقل إلينا حكمة «حَمورابي» من أعماق بابل . . !

ألا ما أروَعها . قاهرة الزمن والقِدم . .

فبينما ينقضُّ الموت على الناس ويأخذهم عن الحياة كأنْ لم يُوجَدُوا ؛ نرى الكلمةَ المسطورة تستنقذ من ذلك الموت الداهم أخبارهم ، وتُراثَهم ، وأفضلَ وأغنى أجزاء حياتهم من رُوح وعقل ، ثم تهَبُ ذلك جميعَه خلودا تتحطم على ذُرَاهُ كل إرادة الفناء ومُحاولات العدم . . ! !

وبهذا – أيضا – تُمكّن الحياة الإنسانية من أن تحقق تجانُسها واكتمالها ، حين يتحول شَتات المعرفة إلى موكب مُتناسِق الخُطى ، مَوصول الحلَقاتِ .

فالكلمة المسطورة التي سجل بها «ديمقريطس» و«أبيقور» حَدْسَهُما عن الذرَّة وما في جوفها من طاقة – ظلّت جنينا حيا ناميا يتقلَّب في الوعي الإنساني عصرًا فَعصْرًا ، وجيلاً من بعد جيل حتى بلغ في عصرنا هذا أشُدَّه ، وأُطلِقَت الطاقة من مَكْمنها .

والكلمة المسطورة التي سجّل بها العالم العربي المسلم «علاءُ الدين بن النَّفيس» فكرته عن الدورة الدموية وتنقية الدم في الرئتين بسبب امتزاجه بالهواء الخارجي.. هذه الكلمات التي سطّرها ابن النفيس.. في القرن الحادي عشر، كانت النور الذي ظلَّ يسعى بين عقول الباحثين في هذا المجال حتى وضع العالم البريطاني «هارفي» يده آخر الأمر على قانون هذه الدورة كاملا.

والكلمات المسطورة التي أودَعَها بعض فلاسفة الإسلام «إخوان الصَّفا» و«ابن مَسْكَويه» أحاسيسهم عن أصل الأنواع وتطُّور الإنسان في أواخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر ظلّت هي الأخرى تنمو في وجُدان العقل حتى استحالت أخيرًا على يد «لا مارْك» و«دَارْوِن» معرفة ساطعة ونظرية وُثْقَى.

والكلمة المسطورة التي سجَّل بها العالم الاغريقي «ارسطرجس» في القرن الثالث قبل الميلاد، حَدْسَه الواعي بأن الأرض ليست مركزَ الكون وأنَّها تدور حول نفسها مرة كل يوم، كما تدور هي والكواكب الأخرى حول الشمس.

هذه الكلمات ظلت «مَنارًا» يرسل أضواء هذه الحقيقة عبر القرون حتى صارت ذات يوم بديهة كبرى.

والكلمة المسطورة التي صاغَ بها «ثورو» رأيه في العصيان

المدني عام «١٨٤٩» ثم مات «ثورو» وضاعت الصفحات التي خلّفها في زحام الحياة، أو بدَا أنها ضاعت وذهبت مع الريح حتى وقعت هذه الكلمات صدفة في يوم من أيام عام «١٩٠٧» في يد شاب «هندي» كان يعاني في جنوب أفريقيا مع بني وطنه المغتربين اضطهاداً وَقحاً، واستعبادا مُذلا، فإذا الكلمات التي ظُنَّ أنها تبدَّدت وتاهت، تُشعل في وعيه النار المقدسة وتدلُّه على طريق الخلاص، ويحدثنا هو عن أثرها فيه فيقول:

«وبينما أبدأ نضالي، تلقيت من صديق لي كتاب «العصيان المدني» فما إن قرأته حتى ملأني قوة ويقينا وذهبت أترجم بعض فقرات منه وأنشرها في المجلة التي كنت أصدرها في ذلك الحين.. ولقد كان في كلمات «ثورو» من صدق التعبير وقوة الإقناع ما جعلني أشعر بحاجتي إلى المزيد من المعرفة بـ«ثورو».. وأخيراً عرفت كيف أن رجالا فُرادَى مثل «ثورو» قد انتصروا لأنهم تقدموا الصفوف بتضحياتهم فكانوا قدوة للعالم»..

هكذا تأثَّر هذا المحامي الشاب الهندي بكلمات لم تكن تقع عليها العين في زحام المكتبات، ولكنها مع ذلك كانت تنطوي على قيمة كبرى، فما إن لاَمسَتْ رُوحَ هذا الثائر الهندي الناشيء حتى أبانَت له الطريق، وقهر الطغيان الذي

كان يعذب قومه في جنوب أفريقيا.. ثم انتقل برسالته وبنضاله إلى وطنه الكبير الهند.. وهناك، وكلمات «ثورو» لا تزال تنمو داخل ضميره، قاد أمته المستعبدة حتى حققت أعظم انتصار بأنظف وسيلة.

هل عرفتم ذلك الثائر..؟؟

انه قِدّيس عصرنا الحديث.. غاندي!!

* * *

ومهما نَضرب الأمثال على قيمة الكلمة المسطورة وجلالها فستَنْفَدُ الأمثال قبل أن تنفَد هذه القيمة وهذا الجلال.

والحق أن جِنْسنا البشري مَدين للكلمة دَيْنًا كبيرًا، وما تاريخ البشرية في حقيقته إلا تاريخ الفكر والكلمة. وإن الإرادة الإنسانية التي دهَمت المصاعب، ودغدت الصخور، وحققت المعجزات، لم تكن ستبلغ من أمرها شيئا لولا الفكر يُزْجيها؛ والكلمة تشدُّ أَزْرَها وتهديها.

ولم يمرَّ بتاريخنا ثائر عظيم، ولا رائد مُقْتحم، ولا زعيم صادق إلا كانوا جميعًا «تلاميذ» مخلصين للفكر، يجلسون بين يديه، وللكلمة المسطورة تكتَحِلُ بها أعينهم عند منامهم، وتتفتّح أول ما تنفتح عليها حين يقظتهم، ويعرفون لها ولأهلها قدْرَهما الكبير.

ولْنقلّب أبصارنا حيث نشاء، ولنستعرض ثورات الناس

من مصر القديمة . . إلى أثينا . . إلى روما . . إلى أوربا . . إلى الشرق والغرب ، نجد بين أيديها جميعًا فكرًا باسلا ، وكلماتٍ أشدَّ مَضاء من السيوف ، وأكثر صلصلة من أجراس الخطر ، وأهْدَى في الظلمات من كل ضياء .

وإن انتصارات البشرية في مجالات العلم ، والفن ، والأدب ، والاجتماع . . جميع انتصاراتها التي تحققت والتي ستتحقق إنما ربحتها الكلمة الدَّءُوب المثابرة .

القوة التي هدَّمت عروش الجبارين . وأزاحتهم من طريق الشعوب ، كانت الكلمة . .

والنور الذي هدى البشرية إلى مَدارج ارتقائها وأخرجها من ظلام التأخر والجهل ، كان الكلمة . .

ودائما — في البدء كان الكلمة . .

ومع هذا فجنسنا البشري لم يحذِق الدرس جيدًا . . وكعادته في التمرد حتى على خالقه ، تمرد على الفكر الذي أعطاه صُموده ، وعلى الكلمة التي منحته خلوده ! !

ولقد كُتب على الكلمة أن تخوض صراعا طويلا وعاتيًا مع السُّلطة تارة ، ومع الناس تارة أخرى .

ولَطالما أُوقِدت المشاعل حول شهداء الكلمة ، وتحلَّق حولهم الناس ليشهدوا في شماتة مصيرهم الفاجع . . ! !

ولطالما تُركت لجوارح الطير وكَواسِرها جُسوم مصلوبة

كان كل ذنب ذويها أنهم حملوا إلى عصورهم الراكدة الضالة حياة جديدة وهُدى جديداً.

أجل.. صادفَت الكلمة عَبْر العصور أذىً كبيراً من الجماهير ومن الحكام.

على أن الصراع الكبير كان دائماً بينها وبين السلْطة.. وكانت تخرج من هذا الصراع بكثير من الجروح والدم المنزوف. ولكنَّ شعارها كان دائماً «كل ما لا يقتلني، يُحْييني».. ومن ثم كان الظفر النهائي لها، والمستقبل دائماً معها.

ولسوف نحاول أن نستعيد من التاريخ ذكرى بعض مشاهد ذلك النضال لِنُحَيِّيَ من خِلاله أبطالَ الكلمة الذين نَابوا عن الجنس البشري كله في صَوْن تُراثِه وتأمِين مصيره. ولِنشهدَ الجلالَ المُتبدِّي في تسامح الفكر وصموده، ولِنُفيدَ من العبرة التي تُفيئها قصة ذلك الصراع.

الفصل الثاني

الصِّراعُ بَيْنَ السُّلْطَةِ وَالكَلِمَة

الصِّراع بين السلطة والكلمة ، مختلف تمامًا عن الصراع بين القانون والحرية . .

ذلك أن الحرية تنتظم حرية العمل ، وحرية القول . وليس من حق الناس أن يفعلوا ما يشاءون دون ضابط أو كابح ، حتى لا تفسد الدنيا وتنقرض الحياة . ومن هنا لم يكن بُدٌّ من قانون ينظم سعي الناس وعلاقاتهم .

والأمر ليس كذلك فيما يتعلّق بالفكر .

إن الأمر مختلف جدًا بين أن أعتدي على غيري وأقول : أنا حر . . وأن أستخدم حرية عقلي ، وأقول : أنا حر . .

وتنظيم القانون لحرية العمل أمر مرغوب فيه وضروري لكن حرية الفكر لا ينظمها القانون ، إنما ينظمها ، ويرسم تُخومَها الفكرُ وحده .

ذلك أن الفكرة الخاطئة ، لا يَدْحَضُها إلا فكرة مُحِقَّة ، ومقاومة الفكر بقانون ، تُشْبه مقاومة النار بقاذفات اللَّهَب . . والفكر العادل لا خوف منه . . والفكرة الباطلة لا بقاء لها .

وإنه لَمن أكثر التجارب الإنسانية صدقًا أنّ الزَّبَدَ يذهب جُفاء «وأما ما ينفع الناس فيمكُث في الأرض»..

ومقاومة الفكر دفاعا عن الحق والخير والعدل، عملٌ ينافي كل قواعد الحق والخير والعدل، لأن هذه جميعًا ثمرة عمل الفكر ونشاطه.

إن كل قِيم حياتنا الإنسانية. إنما كشفها الفكر وجلاّها، وعليه وحده تبعة حفظها وتطوير انعكاساتها، وليس من حق عُرف أو قانون أن يزعم لنفسه غَيرة على هذه القِيم أصدق من غيرة الفكر الأمين.

وإذا كان الفكر قانونَ نفسه، فالكلمة كذلك. إذ الفكر في التحليل النهائي له، هو الكلمة.. وحرية التفكير تعني في نفس الوقت حرية التعبير، وأكثر الأفكار عظمة ونفعًا، لا تساوي شيئًا مّا، إذا هي ظلت هَواجِس مَخْبوءة في سَريرة صاحبها، ولكنها تُؤْتي نَفعَها، وتصير أفكارًا عظيمة حين تَبْزُغُ في كلمات يقرؤها الناس ويتدارسونها.

وكل الحقوق التي تَصُون سيادة الفكر، إنما تصون في الحقيقة سيادة الكلمة.. لأنك تستطيع أن تدير في خاطرك أكثر الأفكار خطرًا دون أن يحس بها أحد أو يؤاخذك عليها أحد.. لكن الصعوبات تَجْبَهُك حين تأخذ أفكارُك في الإفصاح عن نفسها.. حين تتكلم، أو تكتب.

وهكذا كان الصراع بين السلطة والكلمة ، صراعا يخوضه الفكر داخل الكلمة .

وعلى الرغم من أننا لن نُلمَّ بقصة هذا الصراع كاملة ، بل سنكتفي برؤية بعض ملامحها السريعة .. على الرغم من هذا ، فسنرى في ظروف الصراع وطريقته ونتائجه ما يَهبُنا اقتناعًا راسخًا بعدالة الحقوق التي ناضَلت الكلمة دفاعا عنها وجهادًا في سبيلها .

وسنرى كيف أن معظم القضايا التي نادت بها الكلمة ، واضطُهدت من أجلها ، لم تلبث إلا قليلا حتى صارت عقائد للناس وقوانين تَسنُّها السلطة نفسها .

وسنشهد من ذلك الصراع مَلامحه في ميادين الفلسفة ، والعلم ، والدين .. حيث أبْلَت الكلمة بلاء عظيما .

ففي ميدان الفلسفة والعلم تنادينا « أثينا » أولا .. حيث كان يحيا فيها فلاسفة شامخون يحملون تحت ضلوعهم قلوبا شجاعة ذكية ، يتحدثون في كل شيء ، ويناقشون كل مُقدَّس ، ويُزيحون من طريق العقل الأسلاك الشائكة .. ويرسل كثير منهم بصائرهم صوْب الغيب المحجَّب ، والمجهول المعتم ، ثم يعودون بأقباس مُضيئة ، ورُؤى ظافرة .

هذا « أناكساجوراس » يعلن في كلمات شُجاعة

أن الشمس كرة ملتهبة ، فتقوم قيامة السلطة وتقوم معها قيامة العوام ومحترفي الكهانة ، ويرون في هذه العبارة اليسيرة «الشمس كرة ملتهبة» تجديفا في حق الآلهة وهرطقة ، وزيفا .. ويتقرر نفي «أناكساجوراس» .

* * *

وهذا هو «سقراط» ينشب صراع حاد بينه وبين السلطة وتتهمه بالعيب في الآلهة وإفساد شباب أثينا .

وسقراط لم يجحد الألوهة ولم يفسد الشباب .. إنما كان يُفنِّد آلهة الأولمب الذين جعلت الأساطير منها ، ناسا يتقاتلون ويتشاتَمون .. !

كما أنه لم يفسد الشباب بل كان ضد لهوه وخموله وطيشه .

صحيح أن «سقراط» كان ضعيف الثقة بالديمقراطية وبحكم الجماهير نفسها بنفسها ، وهذا مأخذ يأخذه عليه الذين يخالفونه الرأي .. ولكن ، أكان ذلك مُبررًا لإعدامه ..؟

إن الخطر الهائل الذي كان يشكله «سقراط» ضد السلطة هو خطر الكلمة .. وسقراط لم يقصد أبدًا أن تُشكِّل كلماته خطرا هدفه السلطة .. وإنما السلطة هي التي خافت كلماته واتخذت منها عدوا وخَصما .

لقد أصرَّ سقراط على أن يفكر حرا ، ويتكلم حرا ،

ويحيا حرا.. وكان إصراره هذا يتنقل إلى كل من حوله في سرعة الضوء، وهكذا تألَّبت ضده أحقاد العجزَة في أثينا. ولقد جُن جنون قُضاته الذين حكموا بإعدامه حين اجتاحتهم نظراته الساخرة وهو يقول لهم:

«إنكم مخطئون إذا ظننتم أنكم بقتلكم الناس ستمنعون أيَّ ناقد من كشفِ شروركم... لا، ليس أيسر الطرق وأشرفها أن تُكمِّموا الأفواه، بل أن تُصلحوا أنفسكم، وتقيموا الميزان بالقسط»..

وطبعا لم تزد هذه الكلمات قضاته إلا حقدا، وإلا تصميما على الخلاص منه.

وراح سقراط شهيدًا مجيدًا للكلمة.

* * *

وبعد سقراط تمتحن الكلمة في شخص تلميذه «أفلاطون».

ففي سبيل حرية الفكر وسيادة الضمير، تعرَّض لمحنة تُثير الضحك والجزَع معا، حين بِيعَ الفيلسوف الكبير في أسواق الرقيق!!

لقد سمع «ديونيسيوس» ملك سراقوسة بأفلاطون وبعبقريته، فرجاه أن ينزل عليه ضيفا، واستقبله في حفاوة مُفيضَة.. ولكن أفلاطون لم يكد بعد أيام يفتح

شفتيه ويحرك لسانه وينشر بين الناس أفكاره ، وينتقد بكلمات جريئة ، الفساد المندلع في بلاط «ديونيسيوس» حتى صَبَّ الملك عليه سخطه السامي ، فأمر باعتقاله ، وقذف به إلى جزيرة «أجينا» التي كانت حَليفة لأسبرطة ضد أثينا.. وهناك عرضه حاكم الجزيرة للبيع ، ووقف «أفلاطون» بقامته الفارهة المهيبة بين العبيد في سوق النّخاسة ، يزدحم حوله صياح التجار، وضوضاء المزاد ، لولا أن أبصَرَ به رجل كان يعرفه ، فاخترق الصفوف كالسهم وهو يصيح : وَيْحكم.. تبيعون أفلاطون..؟!

ثم افتداهُ بماله.. !!

° ° °

وبعد أفلاطون يجيء «أرِسطو» ليأخذ مكانه بين قَرابين الكلمة.

هذا الفيلسوف الشامخ الذي لم يكن أفلاطون يبدأ محاضراته إلا بعد أن يراه بين تلامذته يزين الحلقة ويضيئها ، فإذا تأخر، أرجأ أفلاطون حديثه وقال : «حتى يجيء العقل».

هذا الفيلسوف العملاق كان مصيره هو الآخر، النفي في سبيل حرية الكلمة وكرامة الضمير، لقد اتهمه خصومه بالإلحاد ، وألّبوا عليه السلطة التي قررت نفيه ، فسارع إليه وهو يقول :

«ليس من الحكمة أن أُهيىء للأثينيين فرصة جديدة للإجرام ضدّ الفلسفة» ! ! مشيراً بهذا إلى محنة سقراط .

* * *

ونغادر «أثينا» إلى «روما» في ركاب الفلسفة والعلم أيضا فنلتقي بـ «ايكتاتوس» واقفا يتحدى غطرسة روما وقياصرتها المتألهين ، فيقول :

«إن الله هو أبو الناس جميعا ، ونحن كلنا إخوة . فلا ينبغي لأحد منا أن يقول أنا أثيني ، أو أنا روماني ، بل عليه أن يقول : أنا مواطن في هذا العالم ، والعالمُ كله وطني» . .

«إنك إذا كنت قريبا لقيصر أحسست اطمئنانا وأمْنا فكم يكون اطمئنانك حين تكون قريبا لله» . . ؟

كلمات رشيدة مؤمنة ، لكن هل يسكت عنها الامبراطور الذي يفرض على الناس عبادته ، ويفرض على الدنيا تقديس روما . . ؟

لا . . ولقد لَوَّح للفيلسوف بقعقعة الأصفاد ، فكتب الفيلسوف يقول :

«الأصفاد . . ؟؟

«ماذا تقول يا صاح . . ؟؟

«إنك ستُقيد بالأصْفاد ساقَيَّ وحدهما . .

«أما إرادتي فلا سلطان لك عليها» . . !

وعلا رنين كلماته حين رأى صفوف العبيد المعذَّبين تقطع شوارع روما عانيةً مقهورة ذليلة . . عندئذ صاح :

«إن العبيد متساوون مع سائر الناس ؛ لأن الناس جميعًا أبناء الله . . .

«إنه لَيجب علينا أن نخضع لله كما يخضع المواطن الصالح للقانون .

«إن الجندي لَيحلف يمينا ألا يُطيع إنسانا غير قيصر ، أما نحن فنريد أن نطيع ضمائرنا الحرة قبل كل شيء» .

ولم تُطق السلطة عليه صبرا ، فأصدر الإمبراطور «دوميتيان» قراره ، لا بنفي الفيلسوف وحده ، بل وبنفي جميع الفلاسفة وطردهم من البلاد معلنا في مرسوم النفي أن الفلسفة أشد خطرًا من الوباء . . . ! !

* * *

ونقطع الزمن وَثْبًا إلى أوروبا ، فنلتقي بـ «برونو» . .

إنه واحد من أقطاب التقدم الإنساني ومَعْلَمٌ شاهق من معالم التضحية النبيلة والاستشهاد العظيم . .

لقد أعلن أن الأرض تدور حول الشمس ، وأعلن أن ثوابت النجوم شموس تدور حول كل شمس منها توابع وكواكب .

وجزاءً وفاقًا لهذه الكلمات الصادقة قررت السلطة محاكمته ؛ لأَنه ملحد ، فغادر بلاده إيطاليا إلى سويسرا وفرنسا وانجلترا وألمانيا حتى استدرجته أخيرا محاكم التفتيش وأغراه بعض زبانيتها المخادعين بالعودة إلى الوطن . . وفي الوطن حُوكم وأحرق حيا . . ! !

* * *

ومثل « برونو » - « كوبرنيكس » و « جاليليو » فإن بضع كلمات مجيدة ذكية تحدثا بها عن حركة الأرض وكرويتها ، سبَّبت لهما السجن والتنكيل والاضطهاد . . هذه الكلمات التي أصبحت فيما بعد بَدائِهَ يتعلمها الأطفال في كل مدارس الدنيا ويأخذ الكبار مكانهم بين الزواحف إذا لم يؤمنوا بها . . ! !

* * *

وتَترعرع الكلمة المسطورة بين يدي « توم بين » في كتابه « حقوق الإنسان » حيث تتألق الحقائق التي رسم بها الرجل لِعالَمنا الحديث طريق خلاصه .

« كل حكومة وراثية ، هي بطبيعتها حكومة استبدادية » .

ألقى هذه القذيفة يوم كانت شعوب الدنيا تخضع للعروش وللحكومات الوراثية والْتفَتَ صَوْب أكثر هذه العروش عُتوًّا وسيادة فقال :

«إن انجلترا ستضحك غداً من نفسها حين تذكر أنها استوردَت رجالا يحكمونها ، تنفق عليهم الملايين وهم لا يعرفون حتى لغتها ، ولا تؤهلهم مواهبهم لأكثر من وظيفة حارس كنيسة ، . . .

عندئذ تحكم عليه السلطة بالموت ، وتتهيأُ المشنقة لاستقباله فيهرب إلى فرنسا .

ويكتب كتابا آخر «عصر العقل» وعلى الرغم من إيمانه الوثيق بالله ، فقد قامت قيامة الحكومة والكنيسة ضده . ولما لم يجدوه بين أيديهم لِيُصْلُوه العذاب قبضوا على الناشر وسجنوه ستة أعوام . . ! !

• • •

هذه لمحات من صراع الكلمة والسلطة في مجال الفلسفة والعلم .

أما صراعها مع السلطة في مجال الدين ، فما أكثر القرابين والضحايا .

لقد كانت تهمة الإلحاد إحدى الموبقات التي اقْترفتها السلطة عَبْر التاريخ بلا وعي وبغير عدل .

وفي المسيحية والإسلام معًا ، ساقت السلطات أحرارَ القلوب إلى المحاكمات والاضطهاد والتعذيب . . ولم يكن الإجهاز على حياةٍ نافعة عظيمة ، أو إلحاقُ الأذى

بنفسٍ بارَّةٍ كريمة ، يُكلِّف الذين بيدهم السلطان أكثر من انفراج شفاههم عن هذه الكلمة الخاطئة الكاذبة : ملحد .. أو زنديق ! !

وكثيرا ما كان وراء التشيُّع للدين والتظاهر بالحفاظ عليه أسباب أخرى لا تمت للدين بصلة .

وعلى أية حال فقد وجدت الكلمة قِمَمًا بَشَرية ظلَّت صامدة أمام التحدِّي .. صاعدة وسْط قُوى التثبيط .. مُتهلِّلة وسط حَوَالِكِ اليأس ...

• • •

وهنا نلتقي بالفيلسوف المعلم « ابن رشد » .. هذا المفكر الضخم الذي بدأت به ومنه فلسفة أوربا والفلسفة المسيحية كلها باعتراف كثيرين من مفكري الغرب من بينهم الفيلسوف المعاصر « برتر اندرَسِلْ » .

ابن رشد هذا ، أكبر شارح لأرسطو، لم يكد يُسطِّر كلمات تُصَور اقتناعه ورأيه في بعض قضايا الدين مثل علم الله الذي رأى قَصره على الكليات دون الجزئيات ، ومثل خلود الروح ، حتى نصب له بعض رجال الدين الشِّباك وأغروا به الخليفة «يعقوب المنصور» فجرده من منصبه ثم نفاه خارج البلاد معلنا في مرسوم النفي « أن نار الجحيم هي المكان اللائق لأولئك الذين يريدون أن يعرفوا الحق بالعقل

وحده ».. وأمر بحرق كل كتب المنطق والفلسفة..!

* * *

وفي إيطاليا نلتقي بـ« سافونا رُولا ».. وعلى الرغم من أنه مارَسَ دوره كثائر ومُحرر سياسي إلا أن الدين كان مصدر تفكيره وانطلاقه.

ولقد اتُّهِم بالمروق. حين كتب يقول: «إن إرادة الإنسان لا تتأثر بقوى خارجية، وإن الخالق سبحانه يجعل الكائنات تسير في نطاق قوانينها الطبيعية، وإنه سبحانه يترك إرادة الإنسان حرة حتى لا يحطمها»..

وانتهز حاكم « فلورنسا » تألبَ الكنيسة عليه، فأضاف كيده إلى كيدها.. ولم يَنس هذا الحاكم قول « سافونا رولا » لأبيه الذي ورث عرشه حين كان مُسجى على فراش الموت واستدعى « سافونا رولا » ليمنحه الغفران، فسأله:

- « هل أنت - قبل أن أمنحك الغفران - مستعد لأن تعيد الحرية إلى شعب فلورنسا؟؟!»

لم ينس الحاكم هذه العبارة.. ولم ينس البابا الكلمات اللافحَة الذي فَضح بها فَسادَه - الثائرُ « سافونا رولا ».

وهكذا أصبح الناس ذات يوم ليجدوا محررهم يساق إلى الموت حرقا..!!

* * *

وإنَّ أعجب مِحنة صادَفتْها العقيدة والكلمة لهي المحنة المشهورة في تاريخ الإسلام بـ«خَلْق القرآن».. وسنقف معها وقفة أطول من وقفاتنا السالفة مع المحن التي سردناها.

ولقد يبدو لنا اليوم أن قضية خلق القرآن أو عدم خلقه لا تستحق العناء ولا التضحيات التي بذلها أئمة كبار وعلى رأسهم الإمام الجليل «أحمد بن حنبل»..

غير أنه مهما تكن وجهة نظرنا اليوم فليس ثمة ريب في أن القضية يوم أثيرت كانت مشكلة الساعة في المجتمع الإسلامي كله.. وكانت تستحق كل الاهتمام الذي أُعطي لها، سيَّما حين نتصور النتائج الدينية والسياسية التي كانت تترتب عليها.

* * *

في بداية القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي نادى «الجَعْد بن درهم» بأن القرآن مخلوق، وكان الجعد يشغل منصبا كبيرا، فهو معلم الخليفة الأموي «مروان الثاني».

وظلّت هذه الفكرة تظهر وتختفي حتى أصدر «المأمون» عام «٢١٨» هجرية قرارا باستجواب العلماء في خلْق القرآن، فمن قال: إنه مخلوق نجا.. ومن قال: إنه غير مخلوق حوكم وحلَّ به العقاب.

وكان «أحمد بن أبي دُواد» قاضي القضاة يومئذ من

أئمة المعتزلة ، ومتطرفا في اعتقاده بخلق القرآن .

وكتب « المأمون » إلى ولاة الأمصار ليُكرهوا علماءها على القول بخلق القرآن . . وسافر بشخصه إلى دمشق ليستجوب بنفسه علماءها ! !

ولقد سلّم من العلماء قوم آثروا عدم المقاومة . . ولجأ آخرون إلى المحاورة الذكية ، منهم « بِشْر بن الوليد الكندي » الذي سأله حاكم بغداد « إسحاق بن ابراهيم » .

– ما تقول في خلْق القرآن ؟

فأجاب – هو كلام الله . . .

قال الحاكم – لم أسألك عن هذا ، إنما أسألك أمخلوق هو . . ؟

قال بِشْر : – الله خالق كل شيء . . !

قال اسحاق : هل القرآن شيء . .

أجاب بشر : هو شيء . .

قال إسحاق : فَمخلوقٌ إذن . . ؟

قال بِشر : ليس بخالق . . ! !

قال إسحاق : أمخلوق هو . . ؟

قال بشر : قد أجبتك – وليس عندي بعد هذا ما أقول .

وأما « علي بن أبي مقاتل » فقد اختصر طريقه . . فحين سأله حاكم بغداد : هل القرآن مخلوق ؟

أجاب : القرآن كلام الله.. وإذا أمرَنا أمير المؤمنين بأمر سمعنا وأطعنا.. ! !

وبين الذين سلّموا بغير مقاومة ، والذين ركَنُوا إلى الحيلة والجدَل ، كان هناك قلّة اعتصمت بإيمان مطلق وشجاعة كاملة ووقفت موقفًا حاسما صُلْبا ، وعلى رأس هذه القلة الشجاعة المباركة أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، واحمد بن نصر ، ونعيم بن حماد ، وأبو يعقوب البويطي .

فأما نعيم ، وأبو يعقوب ، فقد استجوبهما « الخليفة الواثق » بنفسه حين ولي الخلافة وزجَّ بهما في السجن وماتا فيه .

وقال أبو يعقوب وهم يَدْعونه إلى التساهل كي يفرج عنه : - « والله لأَموتن في حَدِيدِي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم » .. !

إن كلمات هذا البطل الشهيد تصور لنا طبيعة هذه القضية المجيدة ، فليست المسألة قاصرة على أن يكون القرآن مخلوقا أوغير مخلوق . بل هي مع هذا قضية سيادة الإنسان على ضميره ، وحقه في اختيار عقيدته واقتناعه

وأما « أحمد بن نصر الخُزاعي » فحين دعاه الواثق ليسأله بنفسه عن رأيه في خلق القرآن صاح في وجهه صيحة مزلزلة وقال : « وما عِلْمُكَ أنت بالقرآن ؟ ! »

وطفح وجه الخليفة الواثق بالحقد واستل سيفه ليضرب

عنق «ابن نصر» لكنَّ يده الخائرة ارتجفت ، فدعا جَلاَّده ، الذي ضرب عنق الإمام الجليل وعُلِّق رأسه في ميدان بغداد بأمر الخليفة لِيَزْدَجِرَ الآخرون . . ! !

* * *

ونعود إلى الإمام «أحمد بن حنبل» وصاحبه «محمد ابن نوح» .

لقد صَمَدا في شموخ رهيب عزيز. وأمر «المأمون» أن يُرسَلا إليه في طرسوس ، بيد أنه مات وهما في الطريق . وخَلَفه المعتصم . ومات «محمد بن نوح» في سجنه ، وبقي «أحمد ابن حنبل» في السجن وحيدا .

ظل أربعة عشر شهرا بُذلت خلالها كل محاولات الترغيب والترهيب ، وهو لا يَعدلُ عن هذه الكلمات «القرآن كلام الله غير مخلوق» .

وحُمل إلى المعتصم حيث دار هذا الحوار.

قال المعتصم : إن القرآن مخلوق

أحمد : كلا . . إنه غير مخلوق

المعتصم : ألم يقل الله «جعلناه قرآنا عربيا» وهل يكون الشيء مجعولا ما لم يكن مخلوقا ؟

أحمد : والله كذلك يقول «فجعلناهم كَعَصْفٍ مأكول» فهل معنى جَعَلْناهم – خَلَقْناهم ؟

واشترك في الحوار أحمد بن أبي دُوَاد قاضي القضاة فسأل الإمام أحمد قائلا :

– أليس الله يقول : « الله خالق كل شيء » والقرآن شيء ؟

فأجاب أحمد : والله يقول « تُدَمِّر كل شيء » فهل دمَّرت كل شيء ؟ !

وفي ختام الحوار ، وعَد المعتصم أحمد بالإفراج عنه إذا هو أمسك لسانه وخفَّف من حِدَّة رأيه ومقاومته .

لكن الإمام أحمد وقد تعلقت به مسئولية الموقف وتبعاته رفض كل مساومة .

وألقى ابن أبي دُوَاد في رُوع الخليفة أن أيَّ انتصار لأحمد سيزلزل عرش الخليفة ويعرضه للسقوط ويجعل من الإمام أحمد زعيما شعبيا يخشى خطره . وهكذا أمعن المعتصم في إيذاء أحمد وأمر بجلده ، ويروي « المقريزي » أنه تَعَاقَب على جَلده مائة وخمسون جلاَّدًا وتلقى الإمام الباسل وَقْعَ السّياط في صبر وجلَد .

وتطوّرت القضية تطورا كبيرا ، ولم يعد الإمام أحمد يدافع عن القرآن وحده ، بل ويدافع عن الضمير الإنساني ضد سلطة باغية تريد أن تُجرِّع ضمائر الناس عقيدتها وتريد أن تَحملهم في دينهم على مالا يرَوْنه حقا .

وتظَلُّ الراية في يمين الإمام أحمد حتى ينتصر انتصار عظيما ، ويتبدَّد خصومه واحدا بعد واحد ، وتُدفَن الفتنة المفتعلة في تراب الهزيمة . .

* * *

هذه بعض معالم الصراع بين السلطة والكلمة في الدين والعلم والفلسفة .

والآن ، ماذا كانت نتائج هذا الصراع في جملته . . ؟؟

هل اختفت الكلمة ولاَذَ الفكر بالفرار؟ ؟

لقد قُتل مَن قُتل ، ونُفي مَن نُفي ، وسُجن مَن سُجن وعُذِّب مَن عُذِّب ، ولكن ما من فكرة نشروها ولا كلمة كتبوها إلا ظلّت صامدة بعيدة من كل سجن ومن كل مشنقة .

وإن الكلمات التي سردْنا مَواقفها الجليلة تحوَّلت جميعها إلى نظريات وقوانين وعقائد . . لا شيء منها تاه في زحمة الكوارث بل عادت جميعها مثل روح الربيع عَبِقَةً ، ريَّانَةً ، فوَّاحَةَ . . لا شيء منها فَتَّ في عضده الهول الذي حاق بذويه ، بل سارت مع الضوء تُنادي العقول من كل صَوْب ، وتبدد الظلام في كل صَقْع ، ولم يُغيِّب الموتُ أصحابَها وأبطالها ، بل عادوا إلى الحياة من خلال أفكارهم وكلماتهم وحقَّقوا خلودا لم يظفر بأثارةٍ منه

خصومُهم الذين أغواهم الغرور، وظنوا أنهم قتلوا الفكر بقتل أصحابه .

ما دلالة هذا كله ؟

دَلالته أنّ مقاومة الكلمة كمقاومة الشمس . . .

والذي يبسط كفه إلى الشمس ليخنقها ويطفئها ، ليس أكثر حمقا وسذاجة من الذي يحاول خنق الفكر وإطفاء نوره .

وشيء آخر يبهر أَلْبابَنَا ، ويجعل التفريط في حق الكلمة وزرًا لا تتسع له مغفرة التاريخ .

ذلك أن هؤلاء الرواد الذين ضحوا أغلى تضحية في سبيل الفكر والكلمة ، كانوا من خير من أنجبت البشرية .

أَجل ، كانوا من أفضل البشر أخلاقًا ، وأوضأهم فكرا وما كانوا ليضحوا في سبيل الكلمة كل هذه التضحية لو لم تكن الكلمة تستحقها .

إنهم لم يَسْعوا لمجد شخصي ، ولم يُشْبعوا ببذلهم نَزَوَةً أو حقدا .

إنما نذروا حياتهم لِدَعْم حق الإنسان في حرية الاعتقاد ، والتفكير ، والقول .

والعاقل لا يضحي بالكثير من أجل القليل . . فإذا كانوا قد بذلوا حياتهم من أجل الكلمة وحريتها : فلا بُدَّ

أن حرية الكلمة تراءَتْ لهم أثمن من الحياة وأغلى.

وهذا هو الدرس الجليل الذي ينبغي للبشرية أن تَحذِقَه وتمضي مع الكلمة في هُداه.

الفصل الثالث

حُرِّيَّةُ الكَلِمَةُ، حَقٌّ مُطْلَق

لا أعرف بين حقوق الحياة الإنسانية حقًا يمكن أن يكون مُطلَقا..

كل الحقوق فيها نسبية. وكل الواجبات كذلك، إلاَّ حق الكلمة، فهو في رأيِي حق مطلق لا قيود عليه، ولا مُنتَهى له..

والكلمة كما نَعنيها، هي الفكرة الصادرة عن رويَّة واقتناع..

تستهدف الخير، لا الأذى.. والبناء لا الهدم.. وليس يَعنينا بعد هذا أن تكون أقربَ إلى الصواب أو إلى الخطأ ما دامت صادرة عن رَوِيَّة ذكية، وعن رغبة صادقة في إرْباءِ الخير العام ومُسانَدته.

الكلمة بهذا الاعتبار، حق مطلق ليس عليها سلطان غير سلطان نفسها.

ذلك أن بلوغ أقصى مدارج التقدم الإنساني، هو غاية الحياة الإنسانية ولُبابُ مَسعاها.

ونحن نحقق مراحل هذا التقدم بالمعرفة، والإرادة.

فبمعرفتنا وبإرادتنا خُضنا المَفَاوز، وعانقْنا المستحيلَ المعجز وحوَّلناه إلى ممكن نملكه ونتحكم فيه.

والمعرفة والإرادة ثمرة الكلمة النافعة الهادية، سواء تلك الكلمات التي استشهد في سبيلها أصحابها، أم تلك التي كُتب لذويها السلامة والعافية.

ففي البَدْء - دائمًا - كانت الكلمة.. وخير جوانب التقدم الإنساني وأتقاها، وأبقاها، هي تلك التي قامت ونَمَتْ بين تيارات أمينة من الحِوار والمناقشة.

وإذا كانت الكلمة، كما أسلفنا، هي الفكر في حالة الإفصاح عن نفسه، فإنها بهذه المَثَابَة أرفع مكانة من أن تخضع لتوجيه

ذلك أن الفكر هو الذي يُوجِّه ويَهدي..

وحين نضع أبصارنا على أيِّ عملٍ من أعمال الحياة الإنسانية نجد الفكر سيد هذا العمل ومُنْشِئه..

الفكر يخلق العمال. ويرسم خططه ومناهجه.

وإذا وُجدت سُلطة مهما تكُن ذكية وعادلة، تريد أن تنتحل لنفسها حق توجيه الفكر، فإنها تقع في تناقض يتعبها.

إذ بأي شيء ستوجه الفكر..؟

بالقانون..؟ القانون فكر.

والقوانين العادلة الخيِّرة. ثمرة الفكر العادل الخيِّر،

ومن ثَمَّ فهي لا ترتفع أبدًا إلى مستوى توجيه الفكر الذي يحفظها من الجمود بما يحدثه لها من إضافات وتطوير.

فالفكر إذن هو الذي يضع قيوده ويرسم حدوده حين يحتاج إلى قيود وحدود.. وهو حين يختار هذه القيود والضوابط يختارها ملائمة لطبيعته المنطلقة الحرة.

* * *

وليس الفكر. وليست الكلمة المسطورة الهادية نبراس تقدمنا المادي فحسب.. بل والروحي أيضًا.

وحين نلتقي في التاريخ أو في الحياة بعظيم من عظماء البشر ورُواد الحياة. نجده ابنًا شرعيًا وبارًّا للكلمة الحرّة.

حتى الرسل والأنبياء..

إن أول أمر إلهي تلقاه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لم يكن.. صَلِّ، ولا صُمْ، ولا جاهِدْ.. إنما كان: اقرأ.!!

والحياة الإنسانية في تقدمها وتفوُّقها ليست مدينة لذوي الأهواء والإمَّعات، بل هي مدينة في ذلك لذوي الإيمان والاقتناع، الذين تتحدد علاقاتهم بالحياة وبالناس عن طريق قضية جليلة يؤمنون بها، ويقتنعون بحتميتها وجَدْواها.

ونحن لا نُكَوِّن اقتناعنا وإيماننا إلا بالكلمة وحدها.

وكل إنسان له رسالة وهدف فهو الثمرة – الحلوة – للفكر والكلمة .

وإذا كان التقدم الإنساني موصولَ أسبابِ المصير بالكلمة إلى هذا المدى البعيد والأكيد ، فإلاَمَ تدعونا تبعاتنا تجاه هذا التقدم ..؟؟

إن الإجابة واضحة جداً ، وهي : تنمية الوسائل التي تمنحنا التقدم وتُعيننا عليه .

فواجبنا إذن احترام الكلمة وتنمية فرصها .

° ° °

والذين يحاولون توجيه الفكر وإخضاع الكلمة ، يفوتهم الكثير جداً من مزايا الفكر ومنافع الكلمة .

والذين يَقْمعون الكلمة دفاعاً عن خير عام ، ومصلحة عامة لا يدركون حقيقة الخير والصلاح ، لأن الخير العام لا يجد اكتماله إلا في ظل الحوار والمناقشة .

وقمع الكلمة قد يحقق الظفر بمزية مّا ، كالنظام مثلا ، ولكنه في نفس الوقت يُفوِّت فرصاً أخرى أهم ، ويضيِّع مزايا اعظم .

وحين يبدو أن هناك ضرورة لقمع الكلمة دفاعاً عن التقدم ، فإن ذلك لا يعني أن الكلمة والتقدم في خصومة . إنما يعني أن خطأ وقع . إمّا في طريقة استخدامنا للكلمة .

وإما في طريقة فهمنا للتقدم ، وإما في طريقة الملاءمة بين الصالح الخاص ، والصالح العام .

ومهما يكن من أمر ، فتوجيه الفكر أو قَمْعُه . لا يخدم قضية التقدم ، ولا يخدم الحرية والسلام ، الضرورَيْن للتقدم .

وحين ترى الحكومات أن من حقها المشروع إخضاع الفكر والكلمة ، فيومئذ لا يتمثَّل الناس بقول جيفرسون «إن أفضل الحكومات ، أقلُّها حكما» .. بل يتمثلون بقول ثورو: «إن أفضل الحكومات . هي التي لا تحكم إطلاقا» .... !

° ° °

إن في الكلمة الحرة النافعة تكمُن أزكَى ضرورات الحياة الإنسانية .

والنفع الاجتماعي الذي تمنحه سيادة الكلمة ، يَفوق كل نفع آخر .

والفرد ، والأمة ، والدولة .. هؤلاء الثلاثة لا يجدون ذواتهم ، وحقيقتهم إلا خلال الكلمة الحرة والفكر الطليق .

فالفرد ساعةَ يُولد ، لا يُعطَى حياته ، إنما يُعطَى وجودَه لا غير .. ثم هو حين يكبر ، يبدأ فيمارس دوره الأساسي في تكوين نفسه واختيار حياته .

ونحن حين يُكتب على أحدنا أن يختار حياته من «نَموذَج» واحد.. ويصوغها من خلال وجهة نظر واحدة، تندفع هذه الحياة في طريق مسدود، وتُحرَمُ من مزايا الحياة المبْثُوثة في طرائقها الكُثْر.

وحين تُفرض على أحدنا بسبب ظروف نَشْأته أو بيئته حياة معينة، فإنه يقضي عمره أجيرًا لسيد لا يحبه ولا يُطيقه.

إن الفرد الحيّ، هو الذي يُوفَّق في اختيار حياته.

ولكي نختار، يجب أن يكون هناك أشياء نختار منها ونُفَاضِلُ بينها، ويجب أن نملك القدرة على هذا الاختيار.

ونحن لا نحيا؛ لأننا أحياء.. بل نحن أحياء؛ لأننا نحيا.

وكلما كانت حياة الفرد خِصْبة، مُتنوعة. مُعْطية، كانت جديرة باهتمامه الدائب، وكانت عونا له على تفوقه المُثابر.

وحياة الفرد لا تستمد سعادتها وازدهارها من عزلته وانفصاله.. بل من ارتباطها الوثيق بحياة أمته والناس من حوله.

من أجل هذا لا يتحتّم عليه أن يكون فَطِنًا في اختيار حياته وحدها، بل وفي اختيار الحياة في وطنه. وفي عالمه.

وسَبِيلُه لهذا أن يكون له رأي في نوع هذه الحياة..
وهو لكي يُكوِّن هذا الرأي لابد وأن يستهدي بآراء جميع الأفراد الآخرين.

والفكر الجوَّال في كل واد، والكلمة الخالصة من كل الْتواء، هما السبيل الأوحد لإيجاد الرأي النافع والاختيار السديد.

إن الحياة تتقهقر كثيرا حين تخفُّ حماسة الناس لها، وحين يتضاءلُ اهتمامهم بها.

والمجتمع الذي يتكوَّن من أفراد فاترين باهتين، يفقد كثيرا من مُقوِّمات يومِه وفُرَص غدِه.

المجتمع الذكي الموفق هو الذي يساعد أفراده دائما على رَعْرَعَةِ آمالهم، وتَوَقُّدِ عزائمهم. وتهلُّل أشواقهم، وجَسَارة مُحاولاتهم. وبَعْث اهتمامهم.

وإذا تعمقنا سيكلُوجية الإنسان، وجدنا أن الناس لا يهتمون بالأشياء لأنها تستحق الاهتمام. بقدر ما يهتمون بها لأنها تعكس اهتمامهم بأنفسهم.

فأنت، وأنا، والآخرون لا نهتم بالمأكل الشهيِّ، والمسكن المريح، والملبس الأنيق، والدَّخْل الوفير، بل والسلوك الحميد. لأن هذه تستحق الاهتمام لذاتها..
بل نهتم بها لأنها تعكس اهتمامنا بأنفسنا نحن. ومسرَّاتنا نحن.

من أجل هذا . يكون الوَطن الذكي الصالح ، هو الذي يُضْفي على مواطنيه إحساسا غامرا وصادقا باهتمامه بهم واعتماده عليهم .

وكلما أحس الفرد أن وطنه يحتاجه ، ويعتمد عليه . وأنه بذاته يُمثل ضرورة حية لأمته . وأن مكانه في الصف مهما يكن محدودًا فإنه يَسدّ ثَغرة ويحمي كِيانًا .. أقول كلما غمر الفردَ هذا الإحساس ، انطلقت قواه في تهلُّل ، وانتعش اهتمامه في إصرار .

وفي رأيي أن سرَّ نجاح الديمقراطيه ، وسرَّ عظمتها ، قدرتُها الفائقة على إشعار الناس بأهميتهم . وهُتافها الدائم بأن الكلمة كلمتهم ، والإرادة إرادتهم . وأن الدفَّةَ كلها في أيديهم .

وإذا كانت أهمية الفرد – أي فرد – لا تتمثَّل في شيء كما تتمثل في الحاجة إليه ، فإنه لكي يحس هذه الأهمية ، ولكي يلبي نداء الحاجة إليه يجب أن يفكر كما يشاء ، ويقول ما يشاء ، مستعينا بآراء الآخرين الذين سيفكرون أيضا كما يشاءون ويقولون ما يريدون .

وهكذا ، لا يظفر الناس بالمزيد من احتمالات الصواب ورُؤَى الصدق فحسب . بل وينمو فيهم واجب الاهتمام ببلادهم وقضاياهم .

إن الصمت ، ليس دليلَ الرضا ، كما يقول المثل العامي .
إنما هو أقرب إلى السلبية ، واللاَّمُبالاة ، والتربُّص .

وإن الكلمة ، حتى حين تجيء معارِضة للرأي السائد والمألوف ، لَتدلُّ على أن قائلها يحمل من فضيلة الاهتمام ما يحمله على القول والمناقشة .

° ° °

والناس حين يتكلمون تختلف ألسنتهم وآراؤهم ؛ لأنهم لم يُخلَقوا في قالب واحد .. وحاجة الحقيقة إلى آرائهم مجتمعين لا تختلف أدنى اختلاف عن حاجتها إلى رأي كل فرد على حِدة .

وحين يُحسُّ الفرد أهميته بالنسبة للآخرين ، وأهمية كلمته بالنسبة للحق ذاته ، فإنه عندئذ يُواتيه من الثقة والطمأنينة مالا غِنى له عنه ، لكي يكون لَبِنةً حية وثيقةً في بناء أمته وعالَمه .

عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُصوِّر قدرته المطلقة وعظمته الكاملة قال : « إنما قولنا لشيء إذا أردْناه أن نقول له كُنْ ، فيكُون » .

« نقول » له كن ..
إنه لا شيء يرفع من أقدار الناس مثل قدرتهم على أن يقولوا .. ومثل إحساسهم بأن لما يقولونه نفوذا واعتبارًا .

والناس لا تُواتيهم الثقة بأنفسهم والأمْن في حياتهم عن طريق مّا ، مثلما تواتيهم بسبب التعبير الحرّ عن أنفسهم ، وعن آرائهم .

وإن الفرد ليُدرك بسهولة لماذا هو يخاف إذا سَرَق ، أو قَتل ، أو أخلَّ بواجباته العامة . ولكنه لا يجد أيَّ مبرر منطقي للمخاوف التي تَنْتابُه إذا هو أبدى رأيه ، وقال كلمته ، وشارَكَ بالرأي الأمين وبالكلمة النافعة في مشاكل مجتمعه .

ولهذا كان إقرارُ حَقِّ الكلمة دَعْمًا لحق الإنسان في الطمأنينة والأمْن .

والناس إذا خافوا من إبداء آرائهم لم يحرصوا على أن تكُونَ لهم آراء ، وفَقدوا على الأيام قدرتهم على تكوين آرائهم .

وإذا تعوَّد الناس أن يعيشوا بغير إعمال آرائهم فقَدُوا حاجتهم إلى الاقْتناع ، وفقدوا الإيمان الذي يكون ثمرة اقتناع واختيار. وعندئذ يتحول وجودهم إلى خَواءٍ مُوحِش وفراغ كئيب .

لقد كان الفيلسوف «مِلْ» صادقا حين قال : «إن شخصا واحدا ذا عقيدة ، يساوي تسعة وتسعين من ذوي الهوى والغَرض » .

وإننا - دائما - لَنجد ذوي الهوى والغرض من الذين لا رأي لهم ولا إيمان .

بينما نجد - دائما - ذوي العقائد الصادقة من الذين يتعبون في اختيار آرائهم وتمحيصها ، ولا نجد أحدهم يعدل عن رأي إلى آخر إلا عن اقتناع جديد .

والمُواطن الكبير لا يتوسَّل بالإمَّعِيَّة إلى الظفر بالمغانم ولكنه يتوسَّل بالاقتناع إلى تَبيُّن مسئولياته .

ولكي يكثر عدد المواطنين الكبار في أمة ينبغي أن ينمو فيها جميعًا الشعورُ بقيمة الرأي وجلال الكلمة .

لقد وُصِفَ «بِسْمارْك» بأنه أنشأ وطنًا كبيرًا ولكنه خلَّف مُواطنين ضِئالا ..

وليس يعنينا أن نعرف مدى ما في هذا الحكم من الصدق بالنسبة لبسمارك ..

إنما يعنينا أن هذه العبارة تَهدي إلى حقيقة مؤكدة ، هي أن ظروف الحياة في أمة مَّا ، تكون رَشيدةً وقويمة بقَدْرِ ما تُنْشِيءُ مع الوطن الكبير ، مواطنين كبارًا ..

والمواطن الكبير يبدأ وجوده من قدرته على التعبير الحر عن نفسه ، وما يعتمل داخل فكره من رأي وقرار دون أن يُحس من مجتمعه ولا من دولته أنه بهذا التعبير يُشكِّل عبئًا ينبغي أن يُدحَض . أو خطرا ينبغي أن يُقاوَم .. !

° ° °

وحاجة الجماعة إلى حرية الكلمة وسيادة الفكر، لا تقل عن حاجة الفرد، بل تزيد.

ذلك أن المجتمع هو الوعاء الذي تتشكل داخله وبتأثيره مصاير الناس والأمة.

وهو يتلقّى في أجياله المتساوقة تُراثَ أَمْسِه، ويحتضن آمال غده، ويُمارس تبعاتِ يومه.. وهذا يتطلب قدرة على الفهم والتمحيص، ويتطلب الإفساحَ لكل وجهات النظر التي تناقِش تراث الأمس، وتَفْقَه مشاكل اليوم. وتَسْتَشْرِفُ رُؤَى الغد.

ومقياس حيوية المجتمع متمثل في قدرته على مسايرة التقدم الإنساني وصوْغ حياته وَفق مقتضيات هذا التقدم.

والتقدم الحقيقي، هو الذي يكُون ثمرة نبوغ الجماهير، لا نبوغ الحاكم.

إن نبوغ الحاكم وحده لا يكفي مهما يكن تفوقه واستقامته، لأن تقدم الأمة حالتئذ، يكون رهنًا بالوقت الذي سيمكثه هذا الحاكم بينها.. كما أن التقدم نفسه يكون عرضة للانتكاس إذا خلَف الحاكمَ الصالحَ حاكمٌ آخر يُجيد الزحف إلى الوراء.

من أجل ذلك، فإن التقدم الذي لا تُشارِك فيه الجماهير بنبوغها وقُدْراتها يكون تقدما وقتيًا، أي مجرد تحسُّن في

الموقف لأن « دَيْمومةَ » التقدم واستمراره ليس لهما سوى ضمان واحد ، هو نبوغ الجماهير نفسها .

ونبوغ الجماهير لا يعني تحوُّلَ أفرادها إلى فلاسفة ونابغين ، إنما يعني أن تملك الجماهير القدرة على الفهم وإدراك قضاياها ومشاكلها ، والتصرف تجاه تلك القضايا بالرأي الحر الذي تبديه ، والقرارات الحكيمة التي تتخذها .

ونبوغ الجماهير يعني ألاَّ تكُون الدولةُ « ضميرَ » الأمة ، بل أن يكون الاقتناع وحده هو هذا الضمير !

وذلك كله يقتضي أن تكون حرية الكلمة حرية مطلقة ليتسنَّى لكل همسة أن يعلُو رنينها ولكل رأي نافع أن يضيء جزءا من الحقيقة .

والتقدم الإنساني في أمة ما . يفقد الكثير من ذاته إذا سار في « خانات » مسدودة .

والتقدم الحقيقي هو الذي تزجيه جميع المؤثرات اللازمة له بحيث يحقق التقدم جميع مفاهيمه ونماذجه دون أن يأخذ منها بَعْضا ، ويتخلَّى عن بعض .

فإذا تفوَّق مجتمع مَّا تفوقًا صناعيًا لا غير ، أو زراعيا لا غير ، أو عسكريًا لا غير ، فإنه يعتبر متخلفًا مهما تكن درجة تفوقه النوعي هذا . . ويكون أفضل منه ، المجتمع الذي يظفر –ولو في مستوى عادي– بكل نماذج التقدم وسِماته .

فالمجتمع الحيّ النامي المتطوّر، هو الذي ينميً داخله كافّة الوسائل اللازمة للتطوّر والتقدم .

وما دامت حرية الكلمة على رأس هذه الوسائل جميعاً كما أسلفنا فإن سلامة التقدم في المجتمع تتطلب حتما وفوراً تقديس هذه الحرية. وكَنْسَ كل القيود من طريقها .

وفي هذا الطراز من المجتمعات يمضي التقدم بخطىً ثابتة ، ويستقيم مَنطِقه وأعراضه ، وتزدهر فيه الحقيقة وينتشر هُداها ، فنرى مع بَعْثِ الوطن ، بعثَ المُواطن . .

ومع احترام النظام ، تقديسَ الحرية . . ومع دَعْم سلطة الجماعة ، دَعْمَ الحقوق الثابتة للفرد . . ومع تزكية واجب الطاعة ، توكيدَ حق المُعارضة . . ومع البناء المادي لحياة الأمة ، التحريرَ الكامل لضميرها ، وإرادتها . .

وهكذا يستكمل التقدم مَقَاديره ويبلُغ أمَره . . أمَّا أن يتم تفوُق مَّا في غياب تفوق آخر وعلى حسابه ، فإن التقدم حينئذ يكون معطوبا .

وإنه لمن الخير لكل جماعة أن تكون دائما على ذكرٍ لحقيقة أفاءتها التجربة الخالدة . تلك هي أن كلَّ تقدم يتم في غياب حرية الكلمة ، وحق المناقشة العامة . يكون تقدماً مشكوكا في طبيعته ، وفي مصيره .

° ° °

والآن وقد ألممنا في إيجاز بحتمية الكلمة الحرة للفرد وللجماعة ، نستطيع أن نبصر حتميتها للدولة ، ومَدى النفع العظيم الذي يعود على الدولة حين تُزكّي حقوق الكلمة ، وتشجع على حرية المناقشة .

ونحن نعلم أن الدولة هي حاصل الجمع لكل ما يتمتع به الأفراد من قُدْرات ، ولكل ما في الأمة من طاقات .

فهي قوية بقدر ما في المجتمع من قوة .

وهي مُتَحضِّرة بقدر ما في المجتمع من حضارة .

وهي حرة بقدر ما في مجتمعها من حرية .

وأُولى سِمات الدولة ومقوماتها ، أنها تستمد قيامها القانوني ، ونفوذها الشامل من قدرتها على تلبية حاجات الأمة وصوْن مصالحها .

والأمة حين تختار جهاز الدولة – أي الحكومة – تجتهد أن يصادف اختيارُها أهلَه ، أعني أكثر المواطنين قدرة على تلبية احتياجات المجتمع .

وليس يُعقل أبدًا أن تملك أمة حقّ اختيار حكامها ، ثم لا تملك حق إخبارهم بحاجاتها . . ! ! !

وحاجاتُ الأمم ليست كحاجات الأطفال الصغار الذين يحملهم الخوف أو الخجل من أبيهم على الصمت ؛ فيوفدون إليه برغباتهم أكبرَهُم سنا أو أكثرهمْ حَظوَة . . . !

إن حاجاتِ الأمة من التعقيد والكثرة والتنوُّع : بحيث تتطلب اشتراك الأمة كلها في الإفصاح عنها ، وتتطلب بالتالي إنعاش قُوَى الكلمة والرأي فيها .

° ° °

وعظمة الدولة لا تتمثَّلُ في سيطرتها ، بل في عَدْلها .

وتوزيع الثروة القومية بالعدل ، ليسَ العدلَ كُلَّه . .

إنه جانب من العدل . . وجانب هام لا ريب في أهميته . بَيْدَ أنَّ العدل بمفهومه الشامل العميم هو تحقيق المنفعة الاجتماعية في شتَّى مجالاتها والبلوغُ بها إلى مستوى الكمال الميسور.

وإذا كانت المنفعة الاجتماعية تقتضي أن تلتزم الدولة العدل في توزيع الدخل- فإنها تقتضي أيضا وحَتما أن تلتزم الدولة العدل في توزيع المسئولية . .

وإذا حملت الحكومة وحدها تبعات المجتمع ومسئوليات مصيره ، فإنها على الرغم مما ستبذله من جهد وتضحية ، تكون قد أخلَّت بمقتضيات العدل والنفع الاجتماعي .

وإذا كانت الدولة لكي تُباشر مسئولياتها تفكر في حرية ، وتعلن رأيها في حرية ، وتقول كلمتها في أمن .

فإن المجتمع لكي يباشر مسئولياته لا بد أن يظفر بنفس

الفرصة فيفكر حرًا ، ويقول رأيه وكلمته في غير خوف .

إن اشتراك الشعب في المسئولية على هذا النحو، هو الضمان الأمثل ، بل الأوحد لحفظ الوطن ، وصيانة الانتصارات التي يدركها ، كما أن هذه المشاركة خير سياج للدولة ، إذ يحيطها دائما بشعب واع لمشاكِله ، قادر على فرض كلمته ومشيئته .

وليس هناك ما يدفع المجتمع إلى تنمية رُقيه وتأييد قضاياه وحقوقه مثل المشاركة فيها ، والشعورِ الصادق بأنه خالق هذه القضايا ، وحاميها ، وهذا يقتضيه المعرفة والفهم . والناس بطبعهم سرعان ما يديرون ظهورهم للأشياء التي لا يُسمح لهم بمعرفتها .

وعملية إخطار المجتمع بما يحدث ، لا تساعد على تكوين معرفةٍ ورأي ؛ لأن المعرفة يُثمرها العرض الواسع لوجهات النظر المتعددة والمتباينة .

والمجتمع لا يعنيه ولا يُفيده أن يُناقش مشاكله بعد أن تتحول إلى قرارات ، إنما يعنيه أن يناقشها وهي مشاكل ، ثم يُحسُّ بدوره هو، ونفوذه هو في تحويل وجهة النظر السديدة إلى قانون ، وإلى قرار . وهكذا يبدو حقُّ الحوار والمناقشة من أعظم مكاسِب الإنسان .

* * *

والتزام الدولة للعدل يقتضيها أن تحمل مسئولياتها تجاه الأجيال المقبلة.

ذلك أن كل مرحلة تاريخية مهما يكن مَدَاها، إنما تؤثر في المرحلة التالية لها وتلقي عليها ظلَّها.

فالحكومة التي تُقلِّص حرية الكلمة مدة حكمها ولو كان الباعث على هذا ظروفًا مشروعة، يتحتم عليها أن تتذكر الأثر الذي سيخلفه ذلك التصرف في المرحلة التالية لها.

إن عبقرية الحاكم تؤتي ثمارها الحلوة حين تتعانق مع عبقرية العصر.

وعبقرية العصر - أيّ عصر - تستمدُّ طبيعتها من عبقرية التطور ذاته.. والتطور ليس أداةَ الحاضر، بقدر ما هو أداة المستقبل، ومن ثم فكل مرحلة تاريخية إنما تبلغ من الصلاح والسداد بقدر تلاؤمها مع المرحلة التالية لها، وبقدر ما تهيء الطريق السوي للمرحلة القادمة.

وهذا يعني أن واجب الدولة لا يقتصر على صونها حقوق اليوم فحسب، بل وحقوق الغد أيضًا.

وما دامت الحرية عامّة، وحرية الكلمة خاصة حقًّا أزليا، وضرورةً لكل يوم، ولكل غد، فإن واجب الدولة إذن ألا تلحق بهذا الحق أيَّ أذى، وألا تتخذ من الإجراءات مهما تكن مُلحَّة وعادلة، ما يمكن معه أن تتحوَّل هذه

الإجراءات إلى حق طبيعي للدولة يُسبب للأجيال الوافدة حرمانًا وكبتًا.

وكل دولة يربطها بالمجتمع تيار نشيط من الثقة والألفة، لا تجد فرصة لدعم نفوذها المرغوب. مثل فرصَتها في الرأي الحر ولو كان مغايرًا لرأيها.

وحظ الحكومات من العظمة يكون دائما مساويًا لقدرتها على احترام هذه الآراء المغايرة، ومساويًا لإدراكها أن حرية الكلمة ليست سيفًا مُصْلَتا عليها، بل هي نور يهديها، ومِهمازٌ يُوقِظها، وصَديق يشدُّ أَزْرها ويُثبِّت على الطريق المستقيم خُطاها.

• • •

هكذا يبدو حق الكلمة - في رأينا - حقًا مُطلقًا.

ولكن ماذا تعني كلمه «مُطلَق»..؟؟

أجل، ماذا نعني بقولنا: حرية الكلمة حق مطلق.؟؟

والجواب يسير.

فنحن نعني بهذا أن حرية الكلمة يجب أن تظلَّ بمنأى عن كل القيود.

ونعني أن حق الكلمة في الحرية يُحتم التسليم به دُونَ مَا لُجوء إلى مقارنته بأية اعتبارات أخرى.

ولقد كرَّرنا غير مرة أننا لا نعني بانكلمة، المهاترة،

والشغَب.. إنما نعني الكلمة المفكرة العادلة التي تُقدِّم - من خلال العرْض أو النقد - فكرًا ينفع الناس ويمكُث في الأرض.

هذه الكلمة - التي هي الفكر في تعبيره السديد النافع - ليست بحاجة مّا إلى قيد مّا، لأن القيود إنما توضع - حين تُوضع - لِدَرْءِ الأفكار الضارة..

ولكن معرفة الأفكار الضارة، عمل لا يستطيعه القانون، إنما يستطيعه الفكر ذاته، والكلمة نفسها.

وَكَأَيٍّ من أفكار حرَّمها القانون، وكلمات طوَّقتها السلاسل، ثم اكتشف الناس فيما بعد فائدتها وصِدْقها، فتحوَّلت إلى شعائر وتقاليد، بل وقوانين.

إن إدراك ما هو خير، وما هو شر لا يثمره الحظْر، بل يثمره البحث والحِوار.

تُرى، هل نحن نُعطي حرية الكلمة أهمية مُفْرِطة حين نقول إنها: حق مطلق..؟!

لا أظن.. ونحن نستمد قيمة الكلمة من وظيفتها في المجتمع وفي الحياة.. فما وظيفة الكلمة..؟؟

إنها - في إيجاز - إمداد الجنس البشري بكل وسائل تقدمه وارتقائه بما تكشفه من مجهول، وبما تقدمه من معرفة

وما دام حق البشر في التقدم والارتقاء حقا مطلقًا ، فالوسيلة إليه ينبغي أن تكون كذلك ما دامت طبيعتها تقتضي هذا الإطلاق .

إن العمل الإنساني – أيضًا – وسيلة للرقي والتقدم ، ولكنه لا بد أن يخضع للقيود إذ لو تركنا كل إنسان يعمل ما يهوى لفسدت الأرض .

ذلك أن طبيعة العمل لا تقتضي إطلاقَه .. عكْسَ طبيعة الفكر.

وليس في مقدورنا أن نتصور حرية مطلقة في مجال العمل .. ولكن في مقدورنا تصور حرية مطلقة في مجال الفكر.

ذلك أَن العمل لا يجد تَناسُقَه وتكامُلَه إلا في التنظيم والتخطيط .. بينما لا يجد الفكر تناسقه وتكامله إلا في الحرية والانطلاق .

° ° °

وكَوْنُ حرية الفكر بهذه المثابة فُرصة الإنسان .. فالإنسان في علاقته بالمجتمع خاضع لقوانين وتقاليد لا يستطيع منها خلاصاً .

وهو في علاقته بالطبيعة ، خاضع لسننها وقوانينها .

وفي علاقته بجسمه خاضع لقوانين يسير بمقتضاها قلبُه ، وكبده ، وغُدده .

وفي علاقته بنفسه ، خاضع إلى حد كبير لوراثاته ، ومؤثرات نشأته وبيئته .

فمجالُهُ الأوحد لكي يشعر بكيانه ، ويمارس حريته ونفوذه إنما هو فكره الحر.

إن هذا التفكير الحر. هو صمام الأمن لحياته كلها ، ولقد صاغ الله الطبيعة الإنسانية على النَّسَق الذي يجعل عملية التفكير طَلْقَةً منطلقة . .

إن كل إنسان يستطيع أن يفكر كما يشاء . .
يُشرِّق ويغرب ، ويصعد ويهبط ، ويدير خواطره وأفكاره داخل نفسه حول أخطر القضايا دون أن يخاف أحدًا أو يحذر شيئًا .

أليس هذا إعلانا بأن طبيعة الفكر البشري ترفض كل قيد ، وكل حد ، وكل تخطيط .

ثم إن الفكر لا يستطيع أداء وظيفته ما لم يكن حقه في الحرية حقا مطلقا .

ذلك أنه هو وحده الذي يُجلِّي للحياة الإنسانية كل قيمها وعقائدها . . حتى تلك القِيَم وتلك العقائد التي يراها

المؤمنون بها مُطلقة .

وإذا كنا نحن البَشر ، مجمعين على تقديس الحقيقة ونُنْشدانها .

وإذا كنا كذلك مجمعين على أن أحدًا منا لا يعرف الحقيقة وحده حتى الرسل الذين آزرهم الوحي ، قال الله لهم «ما أُوتِيتُمْ من العلم إلا قليلا» .. إذا كنا كذلك — لا يعرف واحد ، ولا جيلٍ ، ولا عصر ، الحقيقةَ كلها ، فمن الذي يمنع الفكر إذن مُمثلاً في كل فرد من البشر أن يُدلي دَلْوَه ، ويُمارس حقه في الاهتداء إلى جزء من الحقيقة المرجُوَّة ...؟!

إن تقييد حرية الكلمة في مجال الدين والأخلاق ، هو الذي عطل ارتقاءنا الديني والأخلاقي ...

وإطلاق حرية الكلمة في العلم ، هو الذي مكّن التقدم العلمي أن يسبق التقدمِ الأخلاقي سَبْقا بعيدا جدّ بعيد .

أجل ، إن وراء جميع المكاسب التي أفاءَها العلم على البشر ، نجد حرية البحث وحرية القول ، وحرية المناقشة .

وإذا كانت حرية الكلمة ، الطريق الأوحد لكشف الحقيقة ، فإن الحقيقة يتأخر كشفها بقدرما نَضع على الكلمة من قيود وزَواجِر .

والتجربة الإنسانية في كل حين تؤكد هذا تماما.

سَلِ المسلم الذي يعتز بدينه ، هل كان الإسلام سيبلغه لو لم تنتصر حرية الكلمة التي أعْلت مبادئه وشرائعه..؟

سل المسيحي ، واليهودي ، والبوذي ، وكل ذي دين ، هل كان دينه سيرى النور لو لم تظفر حرية الكلمة فيه بخصومها؟

سل الذين يؤمنون بـ«ماركس» ، والذين يؤمنون بـ«آدم سميث» هل كان أيٌّ من المذهبين سيجد لنفسه في الحياة مجالا ، لولا الكلمات التي حملته والفكر الذي صوَّره..؟

سل الديمقراطيين في كل جيل ومكان ، هل كان نور الديمقراطية سيرُسل سَنَاه ، ويرسم للبشر طريق خلاصهم لولا حرية الكلمة وانطلاق الفكر..؟

سل المحبة.. سل العدل.. سل الخير.. سل الحق.. سل السلام.. سَلْ كل قيمة من قِيَمنا العظمى السامية هل مَخَرتْ زَوارقُها الهادية لُبابَ الزمن إلا بمجْدافَيْ الفكر والكلمة..؟

فبأي حق تُحاول عقيدة ، أو يحاول مذهب وفلسفة ، أو تحاول قيمة من القيم حماية نفسها من الكلمة بالحَد من حريتها..؟

إن تبرير هذا الحدّ يَرتكز على حماية النظام ، وحماية العقيدة .

أما النظام ، فالناس يظلمون الكلمة كثيرا حين يقيسون حقوقها وقيمتها بمدَى قدرتها على حماية النظام .

إن هذه المحاولة ليست ظالمة للكلمة وحدها ، بل وللنظام أيضا . . لأن النظام لا يتقوَّض ، إلا إذا ازدحم بالأخطاء غير المنظورة . . الأخطاء التي مُنِعت الكلمة عن كشفها وتفنيدها ، هذه الأخطاء المستخفية المتسلِّلة المتراكمة هي التي تُصيب النظام بشرٍّ ما يمزقه .

ثم أي نظام ستحميه الكلمة . . ؟

لقد كان استنكار الرق عملا ضد النظام . .

وكانت مقاومة القياصرة والأباطرة عملا ضدَّ النظام . .

وكان إعلان حقوق الإنسان تمردا على النظام . .

وكانت مقاومة الإقطاع وإنهاء ظُلماته جريمة ضد النظام . .

أفهذا – إذن – هو النظام الذي كان يجب على الكلمة أن تصونه ، وعلى الفكر أن يحميه . . ؟ ! !

أَلاَ إنه إذا كنا نرى في الرق ، وفي الإقطاع ، وفي العروش الباغية باطلا كان لا بد أن يُدحَض ، فلْنَحْنِ الجباهَ

للكلمة الحرّة التي كانت قبل سواها العاملَ الحاسم في دَحْض هذا الباطل وكَنْس ذاك الظلام..!!

ولنعلم تماما، أنه إذا كان للكلمة دَوْرُ حِراسة، فهي حراسة المصير الإنساني ممثلا في قِيَمه ومُثُله وقُوى تقدمه وارتقائه، ومُمثَّلا كذلك في الأوضاع التي تستمد من هذه القِيَم شكلها ومُحتواها.

وهذا لا يقتضي الحدَّ من حرية الكلمة، بل يتطلَّب إخلاء طريقها، وفضَّ جميع القيود عنها.

° ° °

وأما العقائد، فما أسوأ تبرير العدوان على حرية الكلمة باسم حماية العقيدة.

إن أي عقيدة تنكر حرية الكلمة تفقد حقها في الوجود؛ لأنها لم توجد إلا بسبب من حرية الكلمة نفسها..!!

وخوفُ العقيدة على نفسها من حرية الكلمة: يعني أن هذه العقيدة الْوَجِلَة تنطوي على نقص وخطأ، وهي تريد أن تعوِّض عجزَها عن الإقناع برغبتها في الإكراه.

وإن العقائد والأفكار والمذاهب، لتفقد بهاءها وصدقها وعظمتها حين تقوم على أساسٍ وخيم من الشعور بأن حرية القول حق لها وحدها.

فذلك يعني أن هذه العقيدة على صواب وحدها .. كما يعني أن صوابَها بلَغ حد الكمال ، وبالتالي فهي ليست بحاجة حتى إلى من يستكمل لها صوابها .. فأيُّ خطأ هذا ، وأي خَطَل . ؟ ؟

وإذا كان من حق فكرة ما أو عقيدة ما ، أن تُبلّغ نفسها للناس عن طريق الكلمة ، فبأي حق تُحرّم على فكرة أخرى أو عقيدة أخرى نفس هذا الحق .. ؟

هل تفعل هذا لأنها وحدها الحق ، وكل ما عداها ضلال ؟

لنفترض جدلا إمكان هذا ، فما السبيل إلى اقناع الناس بهذا الحق الذي لا حقَّ سواه .. ؟

أليست هي الكلمة ، وما تتشكل فيه الكلمة من حوار ونقد ، وتمحيص .. ؟ !

وكما تكُون حماية النظام عن طريق الحدّ من حرية الكلمة خطرا على النظام نفسه كما أسلفنا بيانه ، فكذلك حماية العقيدة بحظر حرية الكلمة تُشكِّل خطرا على العقيدة نفسها .

إن أية عقيدة أو فكرة أو منهج يضع نفسه فوق النقد تُفلت منه الفرص اللازمة لتطويره وتنقيته وتنميته . كما أنه

بهذا يصير فريسة سهلة للتعصب والانطواء .

على أنه ما من مذهب ، ولا عقيدة ، ولا فلسفة ؛ إلا وقد انتفعت بغيرها من العقائد والمذاهب والفلسفات إما في نشوئها ، وإما في تطبيقاتها وامتداد مفاهيمها . . فكيف كانت ستحظى بهذا النفع لولا حرية الكلمة التي نَقَلَت إليها الأفكار التي اقتبستها وانتفعَتْ بها . . ؟ !

الحق أن العقائد في ذاتها ، دينية كانت ، أم أخلاقية ، أم سياسية ، لا تهدد حرية الكلمة ، وإنما يهددها أصحاب هذه العقائد والمؤمنون بها .

فكل مؤمن بعقيدة مَّا يرى أَن حرية الكلمة تنتهي عند حدود عقيدته .

وكثيرًا ما يخدَعُنا التعصب عن نفسه ، وتحت ستار من البَشاشَةِ المصطنعة يحاول كل منا إقناع الآخرين بتسامُحِه . . ولكن حين نتمعَّن ما وراء المظاهر الخادعة نُبْصِر خطوط القتال ، وفي أَحسن الظروف «خطوط الهدنة» تفصل بين العقائد والعقائد . . وبين المذاهب والمذاهب . ثم يُحمَّل الفكر والكلمة وِزْرَ هذه الأضْغان جميعًا . . ! !

لقد مزَّقت البشرية نفسها طويلا بالحروب الدينية ،

حتى بين أصحاب الدين الواحد !

واليوم تُمزِّق نفسها بالصراع المذهبي ، ولا يجتاح هذا الوباء الحكومات وحدها ، بل ويجتاح الأمم والأفراد أيضا.

وصحيح أن وراء هذا الصراع المذهبي ، كما كان وراء ذلك الصِّراع الديني ، لَهْثَ الأطماع ونزعة السيطرة ، ولكن النتيجة واحدة بالنسبة لحرية الكلمة ، فهي مهما يكن باعث الصراع الضحيةَ المسكينة ، والقُربانَ الأسيف.. ! !

وعلى الرغم من أن كل فريق يحاول دَعْم حجته ومذهبه بالكلمة ، إذا كل فريق يُحاول تحديدَ إقامة الكلمة.. !

إن العقيدة التي تُحرم حرية الفكر والكلمة في الوقت الذي نهضت هي فيه على أكتاف هذه الحرية إنما تعلن فقدان مشروعيتها ، لأن ذلك يعني أنها قامت على أساس باطل محظور، وهو حرية الفكر والكلمة.. !

° ° °

ومن حق سائلٍ أن يسأل : أَلَسْنا بهذا الترجيح الشديد لحرية الكلمة نعمل على إلغاء العقائد وتسريحها..؟

فما معنى أن يكون المرء معتقدًا . إلا إذا كان ملتزمًا عقيدته ، ضنينًا بإيمانه..؟؟

وهذا الالتزام بطبيعته ، يحمل المعتقد على نَبْذ ما

يُناهِضُ اعتقاده .

وهل يتأتَّى للناس أَن يعيشوا بغير إيمان وعقيدة ؟

ونُجيب قائلين : إن الناس لا يستطيعون أَن يحيوا بغير إيمان يعصمهم ، ويثبِّت خُطاهُم . والمذاهب لا بد منها لإخصاب الفكر ذاته ، فهي كما يقول المفكر الهندي – ردها كريشنان – « ضرورة ؛ لأنها تقيم قاعدة لتفكيرنا » . .

ونحن لا نلوم أَصحاب العقائد على إيمانهم واعتزازهم بما يعتقدون . . إنما نلُومهم إذا لم يحترموا هذا الحق لغيرهم ، ونلزمهم حين يتوسَّلون لنشر إيمانهم بالإكراه لا بالإقناع . . فإذا قالوا : إننا نعتمد على الإقناع لا على الإكراه . فقد سلَّموا من فَورهم بحق الفكر والكلمة في مناقشة عقائدهم وتمحيصها . .

إن جميع العقائد والفلْسفات ، استمدت وجودها من حرية الكلمة وسيادة الضمير ، وهي لهذا تقع في هُوَّة فاغِرةٍ من التناقض حين تعتمد في بقائها على تحطيم القوة التي مَنحتها وُجودها .

على أَنه جدير بالعقائد في عصرنا هذا أَن تتخلَّى عن حِدتها فإن الإيمان الذي كان ثمرة التسليم والإذعان ، قد أَفسح مكانه للإيمان الذي هو ثمرة الفهم ، وبهذا صار الإيمان

اقتناعًا في أعلى مستويات الاقتناع .

والاقتناع بطبيعته أقرب رحما إلى حرية الكلمة ؛ لأن عناصره كلها من عمل الكلمة وصُنع العقل ، وهو لكي يظل متجدداً ، وناميا ، وحارًا ، لا يَأْسَنُ ولا يَبْلَى ، يحتاج دومًا إلى كل جديد من الفكر وجديد من القول .

° ° °

لقد قال أحد الفلاسفة : «إن الفكر على وجه العموم يعتاقه دائما افتراض وجود أشكال ثابتة وأحكام نهائية» ونحن نرى في هذا القول صوابًا كثيرًا ، وإذا كان من طبيعة الفكر وحقه أن يفحص هَوية كل عقيدة ، وأن يبدأ نشاطه من الصفر ، غير ملتزم أي حكم سابق ، فأي ضير في هذا . . ؟

إنه لا شيء يثير الدهشة مثل خوف صاحب العقيدة على عقيدته من مُناقشتها . . !

إذا كانت عقيدته حقًا وصوابًا ؛ فلن تزيدها مناقشة الفكر إلا أَلقًا وتمكُّنا .

وإذا كانت باطلا فما نفع هذا المعتقد في أن يظلَّ عبد عقيدة زائفة . . ؟؟

وإذا كانت خليطًا من الصواب والخطأ ، فإن مناقشة الكلمة لها ستكشف عن مَواطن القصور والضعف فيها ،

فتستكمل العقيدة صوابها .

وإن الدين كعقيدة ، ليُهمنا عبرة نافعة في هذا المقام ، فلقد تعرَّض عَبْر القرون المديدة لهجمات عاتية موصولة ، جاوزت أحيانا الحكمة إلى الرعونة ؛ والنقاش إلى التَّجني ، فماذا كانت النتيجة ؟ ؟

إنني لا أعرف دليلا على صدق الدين وحَتْمية دَوْره أيْنَ ولا أصدق من كَونه لا يزال باقيا يرسل ضياءه وعزاءه على الرغم من تلك الحملات التي شنَّها عليه الفكر والكلمة . .

أجل إن حرية الكلمة حين خاضت مع الدين صراعا طويلا لم تُصبه بسوء ، بل أعطت الدليل على صدق جوهره ، وأسْدَت للدين أجل الخدمات حين نحَّت عنه الخرافات التي تطفلت عليه وانتحلت قداسته .

على أن من تتمَّة إداركنا حقيقةَ هذه الظاهرة ، أن نعلم أنَّ الكلمة في حوارها مع الدين لم تتحول إلى قوة مهاجِمَة ومُصارِعَةٍ إلا بسبب الاضطهاد الوبيل الذي وقع عليها من بعض رجال الدين والمنظمات الدينية .

ونعود فنقول : إن حرية الكلمة في مجابهتها العقيدة الدينية لم تضرها بل أفادتها . . فعلى العقائد والمذاهب

والفلسفات والنظم أَن تتعلم الدرس من هذه الظاهرة المُلْهمة. عليها جميعًا أَن تَدعَ الكلمة تمارس حقها في المناقشة والنقد..

وحتى إذا كانت الكلمة ستثير في الرأى العام تساؤلا وتَمَلْمُلا، فإنه يجب أَن تُتْرَكَ حرة؛ لأن استجابة الناس لتأثيرها إما أَن تكون منطقية، وعندئذ يكون هناك خطأ يستحق التقويم، وإما أن تكون الاستجابة غير واعية وغير منطقية، وعندئذ يكشف هذا عن قصور في الرأى العام يستدعي العلاج حتى يتكون رأي عام أَرِيب.

وإن كل ما يُخالف عقائدنا، ونظمنا.. بل أَكثر من هذا كل ما هو غير حقيقي، لا يمكن الاهتداء لمعرفته ودَحْضه إلا باشتراك جميع القادرين على هذه المعرفة وهذا الدَّحْض.

* * *

ومن البَدَائِه المقررة أَن الحياة الإنسانية متجددة دائمًا ومُتطورة أَبدا، والفكر الذي يدفعها ويُزجيها تتطور دائمًا أَساليبه وتتجدَّد رُؤاه. فأيُّ كَبْحٍ له وللكلمة لا بد وأَن يُنتج تَفسُّخًا في الحياة وهُبوطًا.

ونحن لا نُسْهب هذا الإسهاب في الدفاع عن حرية الكلمة: مُجرد حريتها.. بل نحن نريد أَن ندعَم رأْينا في أن حرية الكلمة حق مطلق.. وليس حقًا نِسْبيًا يتأثر بأي

اعتبار.

وإن الاقتناع بهذا يمثل في رأينا العلاج الوحيد الحاسم لآفات التمزّق الناشب في عالمنا وجيلنا.

فمشاكل السياسة الدولية في عصر الذرة هذا، تتطلب أن يكون الفكر أوسع نفوذًا حتى يُسْهم في شفاء السياسة الدولية من حُمقها، وحتى يضع حدًا للقلق المظلم الذي هو شرٌّ كالحرب تمامًا.

وإن التجربة التاريخية لَتدلُّنا على أن حرية الكلمة كانت قبل الحرب العالمية الأولى تمارس نشاطها فوق مساحات واسعة..

وبعد الحرب الأولى ضُيق عليها الخناق بعض الشيء..

وبعد الحرب العالمية الثانية ازدادت القيود المحاصرة لها بشكل يحمل على الجزع، حتى لقد رأينا دولة من أكبر دول العالم حضارة وأخذًا بالديمقراطية، تملأ بعض ميادينها الواسعة بأكداس من الكتب ثم تُشعل فيها النار..!!

إنه لا يمكن أن يكون التطور الرشيد هو الذي اختار لحرية الكلمة هذا التقهقر..

لا يمكن أن تكون احتياجات التقدم الإنساني هي التي تتطلب هذا الكَبح للفكر وللكلمة.

إنما لُبابُ المشكلة أَن عالمنا هذا لا يعرف للكلمة قدرها . ولا يُقيم علاقاته القانونية بها على أَساس من الإدراك السديد لحقها ، بل يُقيمُها على أَساس من تيارات السياسة وأَهوائها .

لُبابُ المشكلة أَن الناس يمنحون حرية الكلمة حقوقًا نسبية تنبسط وتنكمش وفْق الطوارىء والاعتبارات . .

وإذا كنا لا نطمع في إرباء روح السلام والإخاء البشري إلا عن طريق رأي عام عالمي ، يقهر ألاعيب السياسة وأهواء السّاسَة ، فلا سبيل لتجميع هذا الرأي العام إلا بأن تُزاح من طريق الكلمة الهادية كل الحواجز والقيود .

إن بُزوغ القوة العالمية الجانحة شطر الحياد وعدم الانحياز ، يمثل مكْسَبًا جليلا من مكاسِب جيلنا وعَصْرنا .

وحين أتتبع المأتى الحقيقي لتفوُّق هذه القوة أراه ماثلا في الرأي العام العالمي الذي أسْهَمت الكلمة في خلقه وإيقاظه . تُرى لو حُرِم هذا القِطاع الكبير من الرأي العالمي الفرصةَ الفكرية التي أتاحت له أن يعرف الكثير من الأساليب الخفية المُخرِّبة للسلام ، أكان السلام سيجد من هذا القطاع حائطا يسند ظهره . . ؟؟

إن كل حقائق حياتنا البشرية يجب أن تكون واضحة قَدْرَ الميسور لجميع البشر وجميع الناس .

وليس السبيل لهذا أن تتحدد مناطق التفكير وموضوعات الكلمة .. بل السبيل أن يتحرر الفكر والكلمة من كل قيد ، وأن يتفوقا على كل اعتبار.

إنه لا بد لسلامة المصير الإنساني كله من الاتفاق على أن حرية الكلمة حق مُطلق ..

ولا بد من أن تُفْصِحَ تشريعات الأمم وقوانينها عن هذا الاقتناع .

الفصل الرابع

عِنْدَمَا تكُونُ الكَلِمَةُ : لا ..

تتعرض حرية الكلمة للمضايقات الكثيرة حين تكون الكلمة : لا . .

أعني عندما يتقدم الفكر ليناقش ، ويعارض . سواء كانت المعارضة لرأيٍ ، أم لمذهب ، أم لعُرف ، أم لِسُلطة .

فهل المناقشة ، والنقد ، والمعارضة لا تملك من النفع ما يشفع بتقبُّلها واحترامها ؟

هل المناقشة والمعارضة شرٌّ مَحْضٌ لا خير فيه ؟

إننا في هذا الفصل نريد أن نُناقش قضية الكلمة حين تأخذ دور المعارَضة .

ولقد حددنا مفهوم الكلمة كثيراً بأنها الكلمة العادلة التي تُعبِّر عن فكر رشيد يريد الحق لا المهاترة ، والخير ، لا الأذَى .

وإذن فنحن كذلك نعني بالمعارَضَة ذلك الحوار القويم ، والاستدراك النافِع ، والنقد السويَّ ، والدَّحْضَ الذي يتوسَّل بالمنطق لا بالشَّغَب .

فهل المعارَضة بهذا المفهوم تُشكِّل عملا عدوانيا هدّامًا . .

إننا لا ننكر أن هناك مُعارَضات تنطوي على أغراض هابطة وتدفعها بواعث الأنانية والحقد.

ولا ننكر أن هناك ناساً يسيئون، أو يمكن أن يُسيئوا استخدام حق المعارَضة والنقد.

ولكن هل كل شيء يسيء بعض الناس استعماله يستحق أن يزول..؟

ألاَ ما أكثر الذين يسيئون استخدام الحياة نفسها، أفدمِّر الحياة إذن ونَستريح منها؟!

هل نُلغي الطب، إذا مارسه البعض بالشعوذة أو الجشع؟

هل نُلغي القضاء ونغلق المحاكم إذا ضل بعض القضاة أو ازدحمت قاعات المحاكم بشهود الزور؟

هل نُلغي الأديان إذا انحرف بها بعض المحترفين الذين يبغون من ورائها الكَسْب والنفوذ..؟

إن الحق – كما قيل – لا يُعرف بالناس، إنما يُعرف الناس بالحق..

وليس مقياس الحقوق، عصمتها عن إمكان الانحراف في استخدامها.. بل قدرتها على تحقيق النفع الاجتماعي للناس مع مسايرتها روح التقدم ومشيئته.

وحق المعارَضة له كل هذا الطابع وهذا الامتياز.

إن دَواعِي قيام حق مّا تفسر طبيعةَ وحتمية هذا الحق ؛ فما دواعي قيام المعارَضة . . ؟

إن المعارضة في حقيقتها ناجمة عن تنوُّع نماذج الفطرة التي فَطرَ الله الناس عليها . . ناجمة عن اختلاف ألسنة الناس وعقولهم واستعدادهم ، وعن تفاوتهم في الثقافة والتفكير.

لقد أعطى الخالق سبحانه لكل فرد عقله . ولو شاء للناس ألا يستخدموا عقولهم هذه ، لما أعطاهم إياها .

وإن اختلاف تفكيرنا ورُؤانا ، هو الذي يحقق للفكر وَحْدتَهُ وتكامُله .

وتعدُّدُ وجهات النظر ، وتبايُنُ الآراء ، لم يكونا أبدًا من عوامل الهدم أو التقهقر ، بل على النقيض من ذلك كانا ، ولا يزالان من عوامل بَثٍّ قُوى التجدد والازدهار.

وحين نأخذ الدين مثلا ، مع مالَهُ من قداسة كثيرًا ما تصدُّ الناس عن إعمال عقولهم في قضاياه ، نجد أن اختلاف الرأي داخل إطاره مكَّن له في الأرض ورَعْرَعَ جوانب الخير والحكمة فيه .

فمدارسُ الفقه الإسلامي ومذاهبُه في الاسلام اختلفت آراؤها حتى فيما يتصل بشعائر الدين ومَناسِكه من صلاة وصيام وحج .

فهل كان اختلاف آرائهم بلاءً أصاب الإسلام ؟

كلا ! وإنما كان نعمة سابغةً مَنحت الإسلام أبعادًا واسعة في الفكر، وزاد بهذه المذاهب ثَراؤُه التشريعي وعمَّقَ اختلاف الرأي منابع التفكير الإسلامي .

* * *

على أن حقَّ المعارضة ليس بحاجة إلى الْتماس دليل يؤكده لأنه يحمل كل وثائق دَعْمه وبراهين حَتْمِيته .

وإنه لأكثر الحقوق الْتحامًا بطبيعة البشر .

ومن عجبٍ أننا إذا اهتدينا بالتفسير الديني لنشوء الحياة الإنسانية على الأرض ، نجد أن هذه الحياة بأسْرها جاءت ثمرة المعارضة حين سأل الإنسان الأولُ نفسه ، لماذا لا يأكل من الشجرة . . . ؟

وإذا اهتدينا بالتفسير العلمي لهذا النُّشوء ، وجدنا كذلك أن الحياة الإنسانية جاءت كنتيجة لمحاولة جريئة للتمرد على سلوك التطُّور الحيّ ، مُعلنة الانشقاقَ الحاسم على مَسَارِ هذا التطوُّر، وإنشاء عالَم الإنسان على الأرض . . ! !

وعلى الرغم من أننا لم نعاصر الأجيال الأولى من بني البشر، وبالتالي لم نشاهد سلوكهم تجاه الحياة ، فإننا نستطيع أن نتصور– دون أن نقع في هاوية الوهم– طبيعةَ وشكلَ هذا السلوك . وهما يتمثلان في الشك والمقاومة .

لقد كان الإنسان القديم يشك فيما حوله ، ويقاوم

تأثيره فيه وسيطرته عليه .

وحتى وهو يعيش في خوف داهم من المجهول كانت وسيلته لتحدِّي هذه المخاوف استعداءَ المجهول بعضه على بعض ، فهو يلوذ بالشمس التي لا يعرف كنهها ، ليقهر بها المطر الذي يجهل كُنْهه كذلك . . وهو يعبد النار التي يجهل حقيقتها ، ليهزم بها الصَّقيع الذي يجهل طبيعته .

إن مقاومة الضُّغوط النازلة على الإنسان الأول ، كانت أسمى مراقيه خلال تطُّوره وارتقائه .

ولو لم « يُعارض » سقراط وأفذاذُ أثينا هُراء السفسطة ، ما كانت الفلسفة . .

ولو لم « يُعارض » المسيح كهنة أورشليم ، ما كانت المسيحية . .

ولو لم « يعارض » محمد عبادة الأصنام وغطرسة قريش ، ما كان الإسلام . .

ولو لم « تعارض » المدْن أمراءَ الإقطاع ، ما سقط الإقطاع . .

ولو لم « تُعارض » الديمقراطية الحقَّ الإلهي المزعوم للملوك ، ما تحرَّرت الشعوب والجماهير .

ولو لم « يُعارض » العلمُ جُمُودَ الرجعية التي كان يفرضها عُبادُ التقاليد ، ما كانت الكهرباء ولا الذَّرة ، ولا رحلة

جاجارين وتيتوف . . ؟ !

إن « المعارضة » هي السّالب الذي يحمل مع الموجب طاقة الحياة الإنسانية الهادرة .

وكما أن أعضاء الجسد تخفق بالألم إذا تسلّلت إلى عافيتنا آفات المرض ، معلنة بهذا الألم حدوث خلَل داخلي ومُنَبهةً إلى خطر يجب تفاديه . . فكذلك كلُّ نظام بشري بحاجة إلى ما يُنبهُه لأخطائه . حتى لو جاء هذا التنبيه على غير ما يَشْتهي ، وحتى لو سبب ضيقًا وألَمًا .

وإن سلامة النظم لتُمتحَنُ بوضوح إشارة الخطر المنبعثة منها في صورة مُعارَضة . .

تمامًا كما تُمتحَن سلامة الأجسام بوضوح إشارة الخطر المنبعثة منها في صورة ألَم . .

والحياة السياسية والاجتماعية للأمة في حاجة دائمة إلى الحِوار الأمين والمعارضة الذكية النزيهة لِتنفي عنها صدأها وتجدد لها رُؤَاها . .

إن التأييد والمعاضدة وكلمة « لَبّيْك » كلها ضروري للدولة كي تحمل مسئوليتها ، وللأمة كي تزكّي وحدتها . .

ولكن النقد ، والمعارضة ، وكلمة « لا » كلها ضروري كذلك لتحقيق الأغراض التي تتوخاها الدولة والأمة . وليست المعارضة الأمينة في حقيقتها عملا مضادًا للتأييد . بل هي

التأييد نفسه عندما يكون التأييد في حالة تصحيح لنفسه ، واستدراكٍ لأخطائه .

وكثيرًا ما ينثر التاريخ بين أعيننا تجارب صادقة دفعت فيها المعارضة كوارثَ ما كان شيء سواها يَقْدِر على دفعها .

ولنأخذ منها ذلك المثال القريب المتمثل في المعارضة التي جابَهَت بها الكلمة أولا ، ثم الجماهير الانجليزية ثانيًا حكومة «أنتوني إيدن» إبَّان عدوانها الثلاثي على مصر.

لقد حاول «إيدن» أن يهيء شعبه لتقبُّل الغزو، ومُباركَةِ العدوان الذي كان يُرتِّب في السرّ أمره ، فبثَّ كل قوى الدعاوة ليقنع الشعب الإنجليزي أن تأميم قناة السويس يعني حرمانه من الدِّفْء ومن الحياة .

وإني لأجد الغبطة حين اتصوَّر انتفاضة الكَلِمة التي تألَّقت على صفحات الصحف البريطانية ، والتي دوَّت تحت قبة البرلمان البريطاني ، والتي نادت جُموع الشعب فاحتشدت تُدَمْدِمُ في وجه رئيس الحكومة وتُطارده في الطرقات ، وتصفق في تأييد عارم لزعيم المعارضة وهو يقول لرئيس الحكومة داخل البرلمان «إنك ألْقيت بتاريخ بريطانيا كله في الوحل» . ثم ينتهي الأمر بسبب هذه المعارضة ومعها أسباب أخرى الى عزل «إيدن» عن الحكم ، ثم عن الحياة السياسية كلها . . ! !

تُرى لو أن الرأي العام البريطاني شدَّ أزْر «إيدن» في موقفه ذاك، وعجزت «الكلمة» عن معارضته، أفما كان ذلك سيُغري «إيدن» بمتابعة خَطَئه؟؟.

ولو أن الكبرياء التي شدَّت زناد الحُمق في حكومة «إيدن» كانت قد شدَّت زناد الحُمق كذلك في الشعب نفسه، أفلم يكن مصير الأمور سيتغير تغيُّرًا مؤسفًا؟

ألم يكن الشعب البريطاني سيجازف بحياته وبأمْنه وبمصيره.

ألَم تكن المعارَضة آنئذ، صِمامَ الأمن الذي ردَّ عن بريطانيا غوائل مغامرة خاسرة...؟!

ولقد يقال: إن المعارضة في بريطانيا لم تَحْزِم أمرها إلا تحت ضغط ظروف خارجية قاهرة.

ولكن حتى مع هذا الافتراض، لا ينقص دور المعارضة ولا يتضاءل.. لأن أهمّ هذه الظروف الخارجية وأكثرها حَسْما، كانت المعارضة التي شنَّها الرأي العالمي بمفكريه، وكتابه، وساسته، وشعوبه..

* * *

إن المعارضة ضرورة عقلية، واجتماعية–وإذا سلَّمنا بأنه لا أحد مُصيب كلّ الصواب، ولا أحد مخطىء كل الخطأ، تحدَّد الطريق الذي ينبغي أن يَسلكه المعارِضون، والمعارَضون.

أما الأولون فعليهم أن يُدْلُوا بمعارضتهم في أمانة وذمّة .

وأما الآخرون فعليهم أن يتقبلوا المعارضة في شجاعة وغبطة .

وعلى هؤلاء ، وأولئك أن يجعلوا من الآراء المتباينة شمُوعا تضيء لهم الطريق ، لا حِرابًا يصطكُّ بعضها ببعض ، ويكْسِر بعضُها بعضًا .

ومن الظواهر الواضحة في الحياة الإنسانية ، ضِيقُ الناس بالنقد ، وَوَلَعُهُم بالثناء .

وهذه ظاهرة لا ينبغي أن تبعث على التشاؤم والجَزَع ، لأن الطبيعة الإنسانية في حاجة إلى الثناء والحمد ، مثلما هي في حاجة إلى التقويم والنقد .

أجل ، فالإنسان كما ينمو بالمُعارضة ، ينمو بالدَّعْم . فهو لكي يصمُد في مَهابِّ الحياة ، عليه أن يَدعَم ذاته ، ويُؤمن بنفسه . .

وهو لكي ينمو مع الحياة ، عليه أن ينقُد ذاته ويقوِّم نفسه . .

وإذا كان خير الأفراد ، هم الذين يستطيعون أن يُوائِموا بين حاجتهم إلى دعْم أنفسهم ، وحاجتهم إلى نقْدها . ، فكذلكم الجماعات والحكومات — خيرُها من يَجدُ نفسه في الثَّناء ، ولا يَفقدها في النقد . .

إن النظم الذكية تدرك تمامًا ما تنطوي عليه المعارضة الأمينة من فُرص الازدهار والقوة ، ومن ثَمَّ فهي تتهلَّل لها ، وتُمكِّنها من حقها ، وتساعدها على حمل مسئولياتها .

والحق أن أكثر الحكومات توفيقًا . وأوفر الساسة ذكاء وفطنة لا يستغني أبدًا عن المعارضة ، كجزء مُتمِّم لفطنته ، وذكائه .

ذلك أن الذكاء الحق المبصر يهتم دائما بأن يرى الأشياء على حقيقتها ، لا أن يراها كما تريد أهواؤنا ومخاوفنا أن نراها .

واقتناعُنا الخاص مهما يكن منطقيا ، لا يعطينا عن الحقيقة والواقع سوى صورة مماثلة لتسَلْسُل التفكير داخل عقولنا نفسها ، ومعنى هذا أننا نرى الأشياء ، لا كما هي ؛ بل كما نودُّ أن تكون .. وهذا يجعل حاجتنا مُلِحّة وماسَّة إلى معرفة أكبر قدر ممكن من وجهات النظر الأخرى ، لأنها تزيد حظنا من الصواب ، وتكشف من الحقيقة تلك الجوانب التي تُغَمُّ علينا رؤيتُها في غمرة الازدهاء بآرائنا .

وصحيح أن الحكومات تستطيع أن تتوسَّل لإدراك هذا بطلب الرأى والمشورة ممَّن حولها . غير أن ذلك لا يكفي لأن أكثر الذين حولها لن يُقدِّموا الرأي الذي يرونه حقًا ؛ بل سيقدمون الرأي الذي يتوقّعون أن يرضي الحكومة ويتفق مع رغباتها .

وهنا تبدو أهمية الدور الذي تمارسه المعارضة ، بوصفها وظيفة اجتماعية وسياسية متميزة عن وظيفة الشورى نفسها ، لأن المعارضة تفتح الباب لجميع الآراء ، وتُباشر عملها في أسلوب بعيد كل البعد عن المسايرة والمُداهنة .

* * *

إن غِياب المعارضة ، يعني في نفس الوقت غِيابَ الحرية ، حتى حين تكون الحرية ماثلةً ، وأسبابُها متوفرة .

ذلك أن الناس لا ينتفعون بالأشياء إلا من خلال استخدامها . .

والثريُّ الذي يملك ثراءً عريضًا ، ثم يعيش ضامرًا غَرِثًا ، يكون هوَ والمعِدم سواء .

والحرية ، ليس المهم وجودها ، بل المهم استخدامُها . . بل إنها لا توجد إلا حين تُمارَس .

وإذا توفَّرت الحرية للناس ثم لم يستخدموها ، فلا بد أنَّ ثَمت خلَلاً خطيرًا يستكِنُّ في حياة هؤلاء الناس .

على أن هناك ظاهرةً تبلغ من اليقين مَبلَغ الحقيقة — تلك هي أنه حيث توجد حرية الكلمة وحق المعارضة ، يُوجد دائمًا وحتما ، استخدام الحرية في كل مجالاتها . . .

وهذه مزية أخرى وكُبرى للمعارضة ، فوجودُها إعلان صادق بوجود الحرية واستخدامها .

وصحيح أن المعارضة حق طبيعي للناس ، ولكنه مثل كثير من الحقوق الطبيعية الأخرى يحتاج في دَعْم ممارسته إلى عَوْن الحكومة وتشجيعها .

ولكي تهيء حكومة مّا لرأيها العام الذي هو سِنادها الحقيقي وسائلَ استخدام حرية القول والنقد ، عليها ألا تتخذ من الإجراءات ما يجعل النفوذ لرأيها وحده .

ومهما يكن ولاء الحكومة للخير العام ، ومهما يَكن صدق نواياها فإنها لا ينبغي أن يغلبها الظن بأنها تخون أماناتها حين تسمح للآخرين بمعارضتها ومناقشتها .

ذلك أن الحياة تستمد مقوماتها من جميع القُوى العاملة فيها .

والحياة الإنسانية ، هي حاصل جمْع الطاقات البشرية المتفجرة من عقول الناس وسواعدهم .

وقصة التقدم في بلد مّا ، هي قصة العقول الحرة ، والإرادات الحرة فيه .

والحكومات تتخلى عن الكثير من أماناتها بحق ، حين تُعطّل هذه العقول ، وهذه الإرادات ، لا حين تساعدها على العمل والانطلاق .

صحيح أن واجب الحكومات السير وَفْق اقتناعها .

ولكن صحيح أيضًا أن واجبها توفير كل الأسباب التي

تُهيِّئ لها اقتناعا أقربَ إلى الصواب والحق.. وهي لا تبلغ هذا إلا بمعرفة الرأي الذي يخالفها قبل الرأي الذي يؤيدها..

وصحيح مرة أُخرى أَن واجب الحكومات حفظ النظام.

ولكن، هل النقد والمعارضة هدم للنظام..؟

الحق أن مجاملة الحكومات والسكوت على أخطائِها، أَوْلَى بصفة الهدم من معارضتها ونقدها.

وليس أيسر على الناس أن يسكتوا — مهما تكن دوافع هذا السكوت.

ولكنْ ماذا بعد الصَّمت..؟؟

هل المُواطن الذي يجعل شعاره «ليس في الامكان أبدع مما كان» أكثرُ ولاءً لوطنه..؟ أم المواطن الذي يقول: «لا.. إن في الإمكان أبدع مما كان»..؟؟

وأيهما أنفع للوطن، وللحياة: المُواطن «الهادىء» الذي يُؤْثِر العزلة.. أم المواطن الذي يتقدم في شجاعة ليشارك في تبعات مُواطِنِيَّتِه، والذي يفكر في مشاكل أمته ثم يُفصح عن هذا التفكير في وضوح وقوة..؟؟

إن واجب الحكومات الرشيدة يقتضيها أن تَدحَض كل الأسباب التي تُنمِّي في المواطنين الرغبة في العزلة، واللامُبالاَة.

وسبيلها الوحيد لهذا، أن تتهلَّل للنقد، وتشجع على

الرأي ولو كان مُعارضا ، وتسلُك مع المواطنين المسلك الذي يملأ أفئدتهم إيمانا بأن الحكومة جادة في حملهم على التفكير الحر من أجل مشاكلهم ، وجادَّة في طلب التعرُّف إلى آرائهم ، وجادَّة في احترام هذه الآراء مُؤيّدة كانت أم مُعارضة .

* * *

إن النقد لا يَعني الهدم .

وإن إرادة الهدم لا تكتفي بالمعارضة ، وإن توسَّلَت بها أحيانا . .

إن للهدم طبيعته ووسائله .

والنقد النزيه ، والمعارضة الأمينة لَيسا مُغايِرَيْن للهدم فحسب ؛ بل هما خير وقاية منه .

والنقد لا يهيء للهدم إلا في تلك النظم التي فقدت دواعي بقائها ، واستمرارها .

ومثل تلك النظم التي حكم التاريخ عليها بالزوال ، تزول حتى لو لم يكن النقد أحدَ الأسلحة في معركة التاريخ ضدها .

أما النظم المشدودة الأَزْر بجدَّتها ، وحاجة المجتمع إليها ، وتمكين التطور لها ، فليس أبعث على العجب من مقاومتها النقد . وفي النقد تكمن ذخائر قوتها ، وتقويم نهجها .

إننا لا نعرف حالة يمكن أن يكون فيها خوف الحكومات من المعارضة مشروعا إلا في الخطر الداهم القائم بالفعل كالغزو مثلا.

أما دون هذا، حتى لو تكون هناك أخطار، لكنها محتملة لا واقعة، فليس ثمت أي مبرر للخوف من حرية الكلمة وحرية المعارضة.

* * *

تُرى هل تتحمل الحكومات وحدها مسئولية كبح المعارضة حين يقع للمعارضة كَبْح..؟؟

لا.. وإنما الرأي العام في الأمَّة يتحمل مسئوليته في هذا أيضا..

تماما، كما يتحمل الراي العام مسئولية خنق الأفكار الجديدة التي يبشر بها أفراده، مُؤْثِرًا الحِفاظ على تقاليد استنفدت أغراضها.

فالرأي العام هو المَلاذ الحقيقي لحرية الكلمة بكل أزيائها.

والذين ينتظرون لكي يُسْهموا في نقدِ الحكومات ومناقشتها أن تقام لهم جزاءَ نقدهم حفلاتُ استقبال وتكريم، وتُغرس فوق صدورهم الأوسمة والنياشين قوم طيبون..!!

إن مسئولية النقد مثل كافّة مسئوليات الحياة ، تستلزم قدْرًا مقدورًا من التضحية والبذل .

وعلى كل إنسان يعرف وَجْها من الحق أن يدل عليه قومه ، وأن يرفع به صوته غير منتظر شكرًا ، ولا خائِف نُكْرا

* * *

لقد أعلن سقراط من أربعة وعشرين قرنا أن الحياة لا تستحق الاعتبار ما لم نقوِّمها بالحوار والمناقشة .

فهل حَالَ لون هذه الحقيقة ، أو أتى الزمان بما ينقضها؟

كلا .. بل لقد زكّتْها كل التجارب وارتفعت بها إلى مستوى البدَائِه .

وما دام واجب الناس جميعًا أن يَنشُدوا ما هو حق ؛ فواجبهم جميعًا أن يحترموا كل رأي يُسهِم صادقًا في كشف هذا الحق .

وواجبهم أن يدركوا أن «الكلمة» حين تأخذ دور المعارضة إنما تُكَمِّلُ رسالة الحياة ، وتجعلها جديرة بأن تكون مَوْئِلاً لبشرية واعية ، نامِية .

الفصل الخامس

الكُتّابُ .. والكلمة ..

ماذا ننتظر من الكاتب حين يُمسك قلمه بيمينه ، ويتهيأ ليكتب . . ؟

هل ننتظر منه أن يُسلّينا ، أو يُجاملنا ، أو يخدعنا . . ؟

لا . . وإنما ننتظر منه أن يجلو لنا الحقيقة ، ويساعدنا على الاقتراب منها .

ننتظر منه أن يقدم إلينا التجربة الإنسانية في أُطُرِها العامة .

ننتظر منه كما قال تولستوي « أن يَصِفَ لنا عالَم الله » .

وننتظر منه أن يسبقنا إلى الدروب غَير المطروقة في هذا العالم ، حاملاً رُوح الرواد ومُخاطراتهم .

هذه مهمة الكاتب وعمله المقدس .

ونحن لا نعني بالكتابة هنا ، عملية تسويد الصفحات ، ولا نعني بالكاتب من يستطيع أن يسكُب مقادير كبيرة من المِداد ، فوق مقادير كثيرة من الورَق . . ! !

إنما الكاتب الذي نعنيه هو ذلك الإنسان الذي عنده فكر يريد أن يبلّغه للناس ، ولَدَيْهِ إيمان بالإنسان وبالحياة وبالكلمة .

هذا الكاتب الذي تُحركه وتبتعِثه طاقة فكرية أَصيلة ، تعيش فيه كل رُؤى الإنسان وتحيا . . ومن أَجل هذا فجاجة البشرية إليه عظيمة . .

إن البشرية في عَوَز دائم إلى أصحاب الأرواح الكبيرة والرُّؤى المُحلِّقة ، سيَّما منهم المفكر الذي تعوَّد الإصغاء لصوت الحقيقة ، والذي يحمل حاسَّة اتجاه يقظَى تسير في سرعة الضوء إلى اللُّباب المستَسِرّ . . وترى التناسُق « الكامن » في الفوضى « الماثلة » . . وتعود إلينا بسرّ الحياة وفلسفة القدَر الإنساني ، وانعكاسات الواقع على هذا القدَر .

والكاتب الذي تعوَّد أن يحمل قلمه كلما بدَا لَه . لا كُلما أُبْدِيَ له أن يكتب ، يعرف ما للكلمة من جلال ، وقداسة وخطر ، ويقف من حُرُماتها وشعائرها موقف الخاشع المُخْبت .

احمل بيدك ورقة بيضاء . . وسَلْ نفسك : كم تساوي هذه الورقة . ؟ ؟

إنها لا تساوي شيئا .

ومع هذا فإن بضع كلماتٍ هي :

« الطَّاقة ، تساوي الكتلة ، مضروبة في سرعة الضوء ، ثم مضروبة في سرعة الضوء مرة أخرى » .

هذه الكلمات المتواضعة جدًا لم تكد بَنَانُ « اينشتاين » تخطُّها فوق ورقة أكثر تواضعًا ، حتى غيرت وجه العالَم ، ونقلته في لمح البصر إلى عصر الذرَّة والفضاء بكل فتوحاته واحتمالاته . . ! !

وإن الكلمة التي يخطها الكاتب ، لا تقل خطرًا عن الكلمة ، أو « المُعادَلة » التي يضعها الرياضي .

ففي كراسة بيضاء تستطيع أن تشتريها أنت بدراهم معدودة كتب « روسُّو » —العقد الاجتماعي— فأجَّج به الثورة الفرنسية . . ! !

وكتب « تُوم بِين » — الْفَهم — ، فأجَّج به ثورة الاستقلال الأمريكية . . ! !

وكتب « ماركس » —رأس المال— ، فأجَّج به الثورة الشيوعية . . ! !

وكتب « تولستوي » — الحرب والسلام— ، فأجَّج به ثورة الضمير الإنساني في كل العصور . . ! !

تلك هي مقدرة الكاتب الرهيبة .

كلمات يقرؤها الناس ، فتُحْيِي فيهم كل ما هو حق وباهر وعظيم .

وكلمات أخرى يقرءونها ، فتمسخ آدميتهم وتُسَوي بهم الأرض .

وإذا كان المَثَل العلمي صادقًا إذ يقول : « إن ما يأكله السيد « س » ، يتحوَّل ويصير السيد « س » .. فإنه كذلك صادق حين نقول : إن ما يقرؤه السيد « س » يتحوّل ويصير السيد « س » .. ! !

* * *

والحياة في شتَّى مجالاتها تنطوي على أولئك الذين يتناولون مسئولياتهم في أمانة وجد واهتمام ، كما تنطوي على الذين يتناولونها في استهتار وعدم اكتراث .

وفي مجال الكلمة يحدث نفس الشيء ، وتغْشَى الكلمةَ المسطورة مِحْنَةٌ أليمة حين يتعرض لها كاتب لا يقدر مسئوليتها ؛ ولا يبذل لها من ذات نفسه ما تتطلبه من ولاء وتَجرُّدٍ ، وتضحية ..

إن واجب الكاتب يستقيم في يمينه إذا هو آمَن وسار قلمه وَفْق إيمانه بأن الكتابة ليست لَهْوَ نفسٍ فارغة .. ولا إزجاءَ فراغٍ أوتسوُّلَ شُهرة .. ولا حِرفة تكسُّب واقتناء ..

إنما هي فكر ورسالة ..

مسئولية ، وتضحية ..

أجل – إن الكتابة مُهمة جليلة .

والكاتب الأمين ، إنسان اصطُفِي لِيُعلن رأيه في الحياة .

والكلمة المسطورة ، هي عقل الحياة في حالة التعبير عن نفسه .

وإن نزاهةَ العقل ، وأمانةَ الحِسِّ ، وشجاعةَ الروح ، وسلامةَ القصد ، لَهِيَ أخلاق الكاتب وفضائله وسجاياه التي يجب أن يمتلكها قبل أن يحمل القلم ويخط الكلمة .

والكاتب الذي منحه الله نعمة التفكير الحر ، يتذرَّى بصفته هذه مكانا عاليا ، مُمْعِنًا في العلُوّ والرفعة ، بحيث يتضاءل جوار نفوذه كلُّ نفوذ ، وينكمش أمام استغنائه كل إغراء . . !

وإن الخلود ليفسح مكانًا لكبار الساسة والقادة والحكام بعضَ الوقت . . لكنه يفسح للكتاب والمفكرين والعلماء مكانهم طول الوقت ومدَى الدهر . .

وهناك قرارات سياسية ضخمة وهائلة رجّت الأرض رجًّا ذات يوم ، واتخذها أباطرة ضِخام ، وقواد كالأعاصير . .

ومع هذا ، فأين هي اليوم . . ؟

إنها إذا كان لها بقاء ، راقدةٌ في أضابير الخزائن الحديدية ، في حجرات مظلمة أو سراديب معتمة ، أو في متحف من متاحف الذكريات .

أما الكلمات التي خطَّها بأَيْمانهم المفكرون ، والفلاسفة والعلماء ، فهي كأشعة الشمس عَددا ومَددا . . بل هي كالشمس بقاء وضياء . . يقرؤها الناس ، وتتلوها الأجيال . . في كل مكان . . في كل عصر . . في كل لغة . . ! !

وهذه الظاهرة الجليلة تفتح أعيننا على أول واجبات الكاتب . .

ذلك هو أن يحس إدراك قيمة النعمة التي أنعمها الله عليه فلا يُحاول أن يشتري بها شيئا من متاع الدنيا ، لأنه ليس في الدنيا كلها ما يستحق أن تكون الكلمة الشريفة ثمنًا له . . ولا يلحف في طلب المثوبة عليها . لأنها مَثُوبة نفسها . .

لتكن المثوبة التي يتمناها الكاتب أن يُوهَب نعمة التوفيق حتى يقدم للناس ما ينفعهم . وتصير كلماته مَشاعل على طريق الأجيال .

لقد رأينا كيف سطّر « ثورو » كلمات في كتاب موجز . لم يطلب عليها أجرا ولا شكورا . وتاهت كلماته في زحام الحياة ، حتى عثر عليها « غاندي » فكانت المشعل الذي أضاء له الطريق ، والأداة التي حقق بها أبهى وأعظم تجارب عصرنا الحديث في مجال السياسة والوطنية .

أهناك وسام ، أو جزاء يمكن أن يبلغ مستوى هذه المثوبة وهذا الجزاء .

إنه لَحقٌ ما قيل : « أكثر الناس جهلا بقيمة الخير . أعلاَهُم صوتًا في طلب المثُوبة عليه » . .

° ° °

ألا وإن الخطر لَيحدق بالفكر وبالكلمة وبالناس .

حين يخون الكاتب واجبه ، فلا تصبح الحقيقة هدفه ، بل يصير غرضه تحقيق أكبر قدْر ممكن من الكَسْب ، والجاه ، والشهرة ، والراحة .

وإن الكاتب الذي يلتمس مجده في ثروة يجمعها ، أو نفوذ يعلو معه ، أوجاه يتبذَّخ على الناس به ، لَهُوأكثر الناس جهلا بقيمة الكلمة والفكر.

وإنه باستجابته لنداء هذه المُغريات الباطلة لَيمسخُ نفسه ، ويُشوِّه حقيقته .

إن الكاتب يكون أكثر سيادةً ، وأقربَ رحمًا إلى الصدق ، كلما تواضَعَتْ مطالبه من الدنيا ، وكلما تفوَّق على هَواتِف الشهرة والترف .

أما إذا وضع في منهج حياته أن يمتطي أحدث طُرُز السيارات الفارهة ، وأن يسكن القصور العالية ، ويمتلك رصيدا قِوامه صفٌ طويل من الأرقام ، ويكون ذا حظْوة عند كل وزير وكل موظف كبير ، ويغطَ في البحبوحة والدَّعَة ، بعيدا من كل مخاطرة جليلة . مُنَحِّيًا عن طريقه كلَّ مسئولية قد تضائل من امتيازاته وبُلهْنيةِ عيْشه ، فإنه بهذا يُصيب نفسه بشرٍّ ما يُمزقها .

ليس معنى هذا ، أنَّ الحِرمان هو حظ الكاتب الحياة . .

وإن الكاتب لأحقُّ الناس بأن يحيا حياة مُيسرة الأسباب ، طيبة المستوى .

وإنه لقادر وهو يحيا حياة وارفةً سعيدة أن يحتفظ باستقلال فكره ، وشجاعة كلمته .. وفي عصرنا هذا وفي كل عصر ، نلتقي بمفكرين كِبار ، عاشوا في رَغدٍ عظيم ، ومع هذا لم يزدهم الرَّغَد إلا استمساكًا بدَوْرهم ، وولاءً لفكرهم واقتناعهم .

فليستمتع الكاتب بما تُفيئُه عليه جهوده من ثَراء ، شريطةَ ألاَّ يكتب لِيُثْرِي .. بل يكتب ليُعلِّم ويَهدي .. فإذا جاءه الثراء ، لم يَفتنه عن الشعلة المقدسة التي وضعها القَدَرُ في يمينه ليضيء بها مسالك الحياة ..

وإذا تجنَّبه الثَّراء ، لم ينقلب على عَقِبيه ، ولم يَبع ضميره في سوق النّخاسة .

وهو على أية حال يكون أملك لزمام كلمته كلما تواضعت – كما قلنا – مطالبه من الدنيا وحاجته إلى الناس .

ذات يوم أرسل الاسكندر من « مقدونيا » رسولا إلى الفيلسوف « دِيُوجِينز » في أثينا . يرجوه أن يذهب للقاء الامبراطور .

وأجاب « ديوجينز » الرسول قائلا :

– « ولماذا لم يأت الامبراطور إلى هنا .. ؟ إن أثينا –

فيما أعلم – لا تبعد عن « مَقْدونيا » إلا بقدرما تبعد « مقدونيا » عن « أثينا » . . . ! !

« عندما تكون لي عند الامبراطور حاجة سأذهب إليه ، وعندما تكون له في لقائي رغبة ، فعليه أن يأتي هُوَ إليّ » . . ! !

أي شيء كان مع « ديوجينز » من أسباب القوة والغَلَب حتى يستغني هذا الاستغناء ، ويقف هذا الموقف . . ؟

كان معه كل شيء ، حين لم يكن معه من الدنيا شيء . .

كان معه فكره الحر لا غير . . وإرادته الحرة لا غير . . ونفسه القَنوع المستغنية لا غير . .

أقول : لا غير . . . ؟؟ ! !

وهل بقي بين أثمن عطايا الحياة ومُمتلكاتها شيء لم يمتلكه من امتلك فكره ، وإرادته ، ونفسه . . ؟ !

إن الكاتب الأمين ، رائد . .

والرُّواد يعطون كثيرًا ، ويأخذون قليلا .

وهم بتفوّقهم في العطاء . وتَفوُّقهم في الاستغناء ، يتحوَّلون إلى شموس تدور الحياة في أفلاكها . .

° ° °

والكاتب يقدم إلينا الحياة من خلال ثقافته وتجربته . من أجل هذا . وجب عليه أن يُنوّع ثقافته ، ويُعمّق تجربته .

لقد قال فيلسوف لا أذكر اسمه : «إنني إذا امتنعت عن القراءة ثلاثة أيام ، لا أُحسن محادثة الناس» ! !

وهو طبعا لا يعني ظاهر هذه العبارة : إنما يُصور حاجة الفكر المستمرة إلى تثقيف نفسه وتزويدها بالمعرفة دائماً .

والكاتب الذي عَمَلُه نَفْثُ الحياة في الكلمات والأفكار يجب أن يظلّ موصول الأسباب بالحياة عن طريق القراءة الدائبة

وهو باعتباره ألْصَق الناس بالحضارة الإنسانية ، يجب أن يظل مشحوذ الحسّ بنبضات تلك الحضارة واحتياجاتها. عن طريق القراءة الدائمة أيضا .

إن أفكارنا لا تتفتح ، ولا تَتْثالُ ، ولا تنضَج وحدها . .

ومهما تكن درجة نبوغ الكاتب . فإن نبوغه هذا يظلّ «خامة» من الخامات . عديمة الجدوى حتى تُطرق وتتحول إلى «السبيكة» التي نُريدها .

ونبوغ الكاتب يتحول ويُؤتي أُكُلَه عن طريق قراءته وثقافته .

وهذا يُفضي بدوره إلى تعميق التجربة .

وتجربة الكاتب التي ينتظر الناس رؤيتها ، هي تلك التي تتشكل خلال حياته في نِقاطِ التقائها بالنموذج العام للحياة الإنسانية .

فنحن لا يعنينا من تجربة الكاتب تلك «المُنْحنَيات» الخاصة في حياته هو. . حتى لو قدمها تحت عنوان «أدب الاعتراف».

إنما نريد منه أن يقدم إلينا التجربة الإنسانية في نماذجها العامة. . ويُقدمها من خِلال وعيه لهذه التجربة وانفعاله الأمين بها.

وتعميقُ التجربة يعني قدرًا كبيرا من الانغماس في قضايا البشر ومشاكلهم، ويعني تفتّحا في الروح والعقل كي يُحْسِنَا استقبال هذه المشاكل في تفاؤل وفهم.

وكلما عَمُقت تجربة الكاتب واتسعت أبعادها، ازدادت كلماتُه قيمة، وأصالة، ونفعا.

إن كلماته آنئذ لن تكون كزهور القوارير. . بل تكون كزهور الحديقة. . أصلُها ثابت، وجُذورها ضاربة في أعماق التربة تتلقى منها ريَّها وغِذاءها.

وتجربة الكاتب الخاصة، لا تكون مَدعاة اهتمام إلا حين يستطيع أن يجعل منها مَشهدًا عاما، يلمح الناس فيه أنفسهم ومشاكلهم، وهذا يقتضي أن تُكمَّل دائما بالمعرفة وتنمو داخلها، وتُكمَّل بالواقع الإنساني وتنمو داخله. وتُكمَّل كذلك بالمَثَل الأعلى وتنمو داخله.

وإذا كانت الحياة تنتظر الكاتب المفكر ليقدم المعرفة.

فهي لا تريد المعرفة المجرَّدة.. بل المعرفة التي تمنح القوة العادلة وتُساعد على النمو، وتكشف طريق الحق والخير.

من أجل هذا ينبغي أن تكون حياة الكاتب سعيًا حارًّا إلى ما ينفع الناس ويُنمِّي الحياة، وأن تكون تَوْقًا صادقا ومستمرًّا إلى الحقيقة.

وبهذا يأخذ الكاتب مكانًا عاليا بين مُوجِّهي النشاط الإنساني، ورُوَّاد الحياة.

° ° °

والكاتب يسيء إلى الكلمة إساءةً جارحة، حين يُقدمها في غرور وصَلَف.. وحين يُخاطب الناس وكأنما وُكِلَت إليه وحده مُهمةُ تربيةِ البشرية..!!.. وحين يَنسى أنه فوق كل ذي علمٍ عليم...

وتواضُع الكاتب ضروري لكي تَبقى المنافذ مفتوحة بينه وبين المعرفة والخير.

إن من حقه أن يَفرح بما يُحرز من توفيق، ومن حقه أن يعتدَّ بموهبته وكفايته، ولكن لا ينبغي أبدا أن ينسى أنه مهما يتسامَقْ ويرتفع فإنه - كما قيل - يقف على أكتاف الذين سبقوه..!!

والاعتداد السَّويُّ بالكفاية، يفرض قبل أي شيء آخر نبْذَ الغرور والاختيال؛ لأن الغرور عَزاء يتسلى به صغار

الهمم والنفوس.. والإنسان الكُفْؤُ له من عُلُو همته ومن توقُّد كفايته ما يُغنيه عن هذا العَزاء.

وبُرْءُ الكاتب من الغرور يَفتح أبواب الفهم والتسامح، لأنه آنئذ يعلم أن معرفة البشر دائما ناقصة.. ولا مَجالَ فيها للأحكام النهائية المُطْلَقة.. ومن ثَمَّ يقول كلمته لا بوصفها الوجهَ الأوحد للحق، بل بوصْفها أصدقَ تعبير لفكرته هو عن الحق.

° ° °

والكاتِب المتفتِّح لا يعيش في تِيهٍ ولا في عَماء.

إنه يحيا بفكره دوما وَسْط ضياء ساطع يجعل أهدافه واضحة، وطُرق تفكيره مستقيمة.

وواجب الكاتب أن يقدم للناس أفكارًا واضحة. ليس فيها ألغاز، ولا لَوْلبيَّة.

إن الكلمات التائهة لا تزيد الناس إلا حيرة.. والكلمات الْهَتْماء لا تزيدهم إلا لُكْنة.. والكلمات المترددة لا تزيدهم إلا وَهْنًا.. وإذا لم يملك إنسان غير هذا النوع من الكلمات فليسكُت؛ فإن سكوته خير عظيم.

إن الكلمات المُباشِرة القوية الواضحة: هي ما يريد الناس لكي يهتدوا بها في ظُلمات مشاكلهم.

وإذا كان من صميم عمل الكاتب أن يهيء الناس

لحمل رسالة عالَمهم. وتَبعاتِ وجودهم، وان يزيد بالكلمة ثراءهم الروحي والفكري، فهو لن يكون على هذا قادرًا إلا إذا كان واضحًا مع نفسه، صادقًا مع أهداف فكره، وإلا إذا قدَّم فكره في وضوح وصدق ويُسْر.

من أجل ذلك ينبغي للكاتب أن يهتدي بهذا المُثلث الضَّوْئي الذي رسمه «كانت»:

* ماذا يَسعُني أن أعرف..؟
* ماذا يجب أن أعمل..؟
* ماذا أستطيع أن أرجو..؟

فإذا استبانت له مَعالمُ معرفته، وعمله، وأحلامه، فعندئذ يستطيع أن يخاطبنا.. عندئذ يستطيع أن يثقفنا بمعرفته، ويقودَنا بعمله، ويملأ قلوبنا حماسةً وتَهلَلاً بأحلامه..

وليس معنى هذا، أن الكاتب لن يُواجَه بكثير من غموض الحياة..

وليس معناه أن يرهب هذا الغموض ويهرب منه.. وإن وضوحه مع نفسه، واستقامة منهجه الفكري لكفيلان بتبديد هذا الغموض، والاهتداء إلى كشف مُعَمَّياته.

* * *

وهذا ينقلنا إلى واجب آخر، أو إلى صفة أخرى لجوهر

فالكاتب ينبغي أن يكون مفكرًا، أي أن يكُون له وجهة نظره الخاصة التي تجيء ثمرة تفكيره واقتناعه.

إن الكاتب الذي لا يُعمل فكره، والذي لا يملك من موهبة العمل وأدواته سوى نثر كلمات جميلة على الناس، إنما يقوم بعمل يُشبه «عَرْض الأزياء» سِيَّما حين يكون مُولَعًا بعرض آراء الغير: لا غَيْر..

وهذا النوع من الكُتاب قد يسلِّينا، ويُزجي في التسلية فراغَنا، ولكنه لا يعطينا ما نرجو من النفع والهُدى.. ثم هو بعد هذا يَظلُّ شيئًا عاديًا في حياتنا. مثل بقية الأشياء العادية الكثيرة.. ركوب الأتوبيس مثلاً.. قراءة إعلانات الصحف المبوَّبَة مَثَلا..!!

إن الإمَّعية خطر مدمر.. والكاتب الذي لا يزيد عالَم الكلمة ثراءً، ولا يضيف إليه جديدًا، شيء زائد عن الحاجة في عالَم الفكر والكلمة.

أما الكاتب المفكر الذي يبتكر ويعطي من أَصالَته مهما تكن درجة تفكيره، فهو إنسان يزدادُ به الفكر الإنساني خصوبة وإيناعًا، وتَقَرُّ به عين الحياة اذ يصير جزءا من عقلها المبدع الوثّاب..

ان الحياة الإنسانية في شتَّى نُقلها وارتقاءاتِها الباسلة

كانت تجري دائما على قدَر يُسهم في إعداده الذين يفكرون.

ففي العلم، وفي الأدب، وفي الفلسفة، وفي كل مناحي الإنشاء والاختراع والكشْف نجد المفكرين أولا.. والمفكرين دائمًا أمام القوافل الزاحفة، يُعمِلون عقولهم المُضاءَة، ويحاولون أن يكشفوا المجهول، ويُخرجوا من كل شيء خَبْئَه.

وليس هناك شيء يَدْرَأُ عن الكاتب لَوْثَةَ النَّفعية، والوصُولية سوى أن يكون مفكرًا أمينًا.

فالفكر يحفظ له ثبات شخصيته ونُموَّها داخل اقتناعه ورُؤَاه.

والتفكير يَعني أن لدى الكاتب ما يستحق أن يُقال.. ويجعل من الكاتب إنسانا له انفعالاته النبيلة، واهتماماته الجليلة، وله مُشاركة إيجابية مُؤْنِسَة في مشاكل الناس والحياة.

ولَسنا نعني بالتفكير هنا حَشْد طاقة العقل لتبرير اتجاه الكاتب.. بل نعني حشد طاقة العقل لمعرفة الحق.

إن الذي يكتب مقالا أو كتابا ليدافع مثلا عن التفرقة العنصرية يفكر طبعًا في هذه القضية.. بيد أن مثل هذا التفكير ليس أكثر من عمليةٍ عضوية تحرك خلايا المُخ.

فهل هذا ما نعنيه حين نطالب الكاتب بأن يكون مفكرا..؟

كلا، وإنما نعني بالفكر تلك المحاولات الجليلة التي تحتشد فيها كل قُوى العقل، والنفس، والخلُق؛ لتبحث عن الحقيقة وتعلنها حتى لو كانت هذه الحقيقة ضدّ ميول الكاتب ومصالحه.

فقوة الفكر تُمِدُّ الكاتب الأمين بأعظم مزاياه، فتجعله «موضوعيًا» يستطيع أن يرى الأشياء، كما هي؛ لا كما يتمناها.. وتجعله يقف إلى جانب الصواب ويفهمه ويعلنه حتى حين يعجز عن تحقيق هذا الصواب.

إن الكاتب يقترب من «الموضوعية» كلما رَبَا حظه من الفكر.

وأقدرُ الكتاب على إدراك الحق وتبيُّنه، مَن يستطيع أن يكون «موضوعيا» في نظرته وفي رُؤاه.

° ° °

وهذا بدوره ينقلنا إلى واجب آخر، لعلّه أهم واجبات الكاتب تِجاهَ الكلمة، وتجاه الناس..

ألاَ وهو: أن يعلوَ فوق الأحداث.

ليس عمل الكاتب تبرير الواقع. بل تفسيره، والدعوة إلى تغييره إذا كان يتطلب التغيير.

والكاتب القويم، مكتشف ورائد، ومن أجل هذا

يتحتم عليه أن يتحرر من كافّة القيود التي تعتاق حركة عقله الحر..

وولاؤه أولا يجب أن يكون للحقيقة ، مهتدياً إليها في ضوء القيم الإنسانية وحدها.

وعليه ألا يقيد تفكيره باعتبارات السياسة أو العُرْف حتى لا يُضائِل هذا التقييد من نفوذه في البحث عن الحق.

إن الكاتب يرتبط باعتبارات السياسة والقانون والعرف ، بوصفه مُواطنا.. بَيْدَ أنه يتخطى كل هذا ويجاوزه ويتفوق عليه بوصفه مُفكِّرا..

فإذا اقتضاه وضعُه كمواطن أن يسير وَفْق تشريع مّا لا يراه قويما ، فإن واجبه كمفكر يقتضيه أن ينقد هذا التشريع ويبحث لمجتمعه عن خيْر منه.

فهو يحترم قوانين بلاده ، ويسير وَفْقها كأي مُواطن آخر.. لكنه ، بخلاف أيِّ مواطن آخر، مُطالَبٌ بأن يُعمِل فكره ويستخدم موهبة الكلمة المسطورة في الهُتاف بالجديد الأمْثَل دوما..

وإنه على ذلك لَقادر ، ما دام يحتفظ بمكانه الذي ترشحه له وتُبوِّئُه إياه وظيفتُه الاجتماعية كمفكر ، ومُعبِّر عن الحقيقة والعقل.

وحين يسمح الكاتب لشيء مّا أن يَخلُب لُبَّه إلى الحد

الذي يتضاءل فيه وَلاؤه للحق ، فإن أسباب التفكير السَّديد تضطرب بين يديه مهما يكن شموخ عقله ، وقوة فكره .
وإن أمامنا مثلا حيا - رجلين لم يكونا كاتبين فحسب ، بل كانا قِمَّتين سامِقتين من قِمم العقل البشري ، وفيلسوفين لا يزال الفكر الإنساني يلتمس عندهما المعرفة .

إنهما « هيجل » ، « وأفلاطون » . . .

أما أولهما ، فوضع الدولة فوق الحرية .

وأما الثاني ، فوضع الواجب فوق الحق . .

ولقد أفضى بهما هذا المسلك إلى تَوتُّر عجيب في تفكيرهما الشامخ وإلى بَلْبَلةٍ مضحكة . . . ! !

لقد تكلم « هيجل » عن « المُطْلَق » حديثًا قَيِّمًا بحق ، وتحدث عن الحرية وارتفع بها إلى مكانها الأسمى حين رأى أن حركة التاريخ كلها ، إنما تمثل التطور التدريجي لفكرة الحرية . . .

ولكن رُوحَ عصره ، والأحداث السياسية في بلده وجيله . استطاعت أن تُكبِّل عقله الشامخ ، فإذا به يُعطي تفسيرات جديدة ومناقضَة عن المطلق ، وعن الحرية .

« فالمطلق هو الدولة ، والدولة « البُروسية » بصفة خاصة !

« وَأَرْقى شكل اجتماعي للحرية . يتمثَّل أيضا في الدولة البروسية .

«والحق يجب إخضاعه للقوة .

«والحرية لا توجد الا في الخضوع المطلق للضرورة» . !

ان وَلاءَ «هيجل» للدولة ، قَهَرَ ولاءَه للحرية ، فمضى يُقدسها كل هذا التقديس المضحك ، وذهب يصنع من فلسفته العريقة والعميقة إكليلا يضعه على جبين الدولة . . ودولته هو بالذات «بروسيا» . . ! !

ومهما نلتمس له من المعاذير ، وانعكاس المؤثرات السياسية في عصره على تفكيره ، فإن ذلك لن يزيد مواقفه كفيلسوف ومفكر الا حرجا وصعوبة .

وفي رأينا ، أن مَأتَى هذا التناقض العجيب في فكر «هيجل» ، إنما هو عجزه في إحدى فترات ضعفه الإنساني عن التفوق على الأحداث ، وفقدانه الثبات أمام مُثيراتها ومُؤثراتها .

و«أفلاطون» كذلك ، بالَغَ ، بل أوغَلَ في إيمانه بالواجب ، إيغالاً باعَدَ بينه وبين الولاء اللازم للحق .

وهو يُسْلِم الواجب للنظام والقوة ليصوغا العالم الذي يريد ، ونموذج الحياة التي يُؤثرها ويرجوها .

وهذه الحياة المثالية نفسها ، اضطربت موازينها في يد أفلاطون وهو لا يدري .

أفلاطون هذا الفيلسوف الشامخ ، يرى الحرية ظلمة

واضمحلالا ، وينادي بالرقابة الصارمة على سكان جمهوريته ، ويأمر بالضرب بيد من حديد على كل من ينشد المساواة . . .

ثم هو يعلن أن واجب الشعب يتمثل في كلمة واحدة : الرُضوخ . . . ! !

ويقسم المواطنين في جمهوريته الفاضلة إلى ثلاث طبقات : الأولى من ذهب . . والثانية من فضة . . والثالثة من نحاس . .

وينهَى في إصرار عن أن يتسلَّل أحد أفراد الطبقات الدنيا إلى طبقة أعلى . ويذيع على سكان جمهوريته بيانا يقول فيه : « هناك نبوءة تقول إنه لو حدث أن وقف رجل من النحاس أو الحديد في حراسة الدولة – أي في مناصبها العالية – فإن الدولة سوف تتحطم » . . . ! ! !

كلمات تثير دهشتنا .

فالفيلسوف الذي يحلِّق عاليا بفكره . ويبهرنا بقوة عقله ومَضاءِ منطقه . يتدهور الرأي بين يديه إلى الحد المؤسف الذي رأيناه .

لماذا حدث هذا . . ؟

حدث لأن أفلاطون في ساعات يأسه . عاش في مستوى الأحداث التي كانت تعاصره . ومضى يدرس

الحقيقة من خلالها ؛ فتاهَت الحقيقة منه في زِحامها . . . !

وان في كلام أفلاطون نفسه ما يقنعنا بهذا التفسير .
ففي الرسالة السابعة يقول واصفا الفساد والانحلال السياسي والاجتماعي الذي أصاب أثينا :-

« . . وعندما نظرتُ إلى كل هذه الأشياء – الرجال الذين كانت في أيديهم مقاليد الأمور ، والقانون في محنته ، والأخلاق في هبوطِها ، والفوضى المنتشرة في كل مكان . شعرت بجزع كبير ، وعزمت على ألا أكُفَّ عن التفكير في إصلاح هذا الخلل المستشري ، وأن أتجرد للبحث عن الفلسفة الحقة التي تهدي الى النظام والعدل » . . .

في هذا الجوّ فكّر أفلاطون . .

وإنه لواجب عليه أن يفكر في الواقع الذي يحيط به ويعيش فيه .

ولكن آفته جاءت من أنه جعل تلك الأحداث مصدر تفكيره ، لا موضع تفكيره . وهكذا عجز بدوره عن التَّفوق عليها وتَخطِّيها واختلط عليه الأمر ، فبدلاً من أن يرد مَساوئ عصره إلى نقص في نفوذ الحق . ردَّه الى النقص في صرامة الواجب ؛ فمضى يكبل الناس بالواجبات غير المعقولة وغير المشروعة . ويقسمهم الى ذهب . وفضة . ونحاس . . ! !

° ° °

إن « هيجل » حين يحاول اقناعنا بأن المطلق في قداسته وكماله ، إنما يتمثل في دولة « بروسيا » .

و« أفلاطون » حين يحاول إقناعنا بأن الناس خُلِقوا للرضوخ . وأن العمل اليدوي حقير ومن ثم فهو من نصيب الدهماء وحدهم . وأن الرقّ نظام طبيعي ، والمساواة جريمة وزور . . .

أقول : إن الفيلسوفين حين يُجهدان عقليهما في تبرير هذا المنطق وإقناع الآخرين به لَيكشفان عن الخطر الماحِق الذي يتعرض له المفكر حين لا يتفوق على الأحداث المحيطة به وحين لا يعتصم بالحقيقة ولا يهتدي بالقيم السويَّة .

° ° °

ان الكاتب ممثل أمين للحقيقة وللفكر ، وهو بهذه المثابة إمام ، لا مأموم . . ومتبوع لا تابع . . اذا رأى صوابا سانده ، واذا رأى خطأ فنَّده .

وتحرير فكره من أغلال التبعية والخضوع ضروري لوجوده ككاتب .

والناس لا ينتظرون منه أن يمثل ضآلة التابع ، بل جَدارَة الرائد . .

يتوقَّعون منه أن يتحرك بفكره في جميع الأبعاد . بل ويكتشف لهم الأبعاد التي لم يبلغوها بعد .

ليس دَوْر الكاتب حماية الأحكام المسبقة . والقضايا التي تستمِدُّ أهميتها من وضع اليد . ومُضيّ الزمن .

بل دوره أن يكشف المعطيات الجديدة للفكر الإنساني، ويواجه في شجاعة وفهم . القَضايا التي يطرحها التطور أولا فأولا .

وواجبه أن يساعد الناس على أن يُنمُّوا تجاربهم الحيَّة التي ستقودهم الى حيث يلتقون بروح العصر. والتي تجعل من عقول ذويها قُوىً متحركة لها نشاطها ونفوذها ورؤاها .

فأهمية الكاتب لا تتمثَّل في عدد الأفكار الجديدة التي يقدمها . بقدر ما تتمثل في قدرته على إكساب قرائه عادة البحث الحر عن الحق .

ولو استطاع الكاتب في حياته كلها أن يترك لنا عشرة من قرائه اكتسبوا بتأثيره عادة البحث الحر. والشجاعة في إبداء الرأي . فإن هذا الكاتب يكون بطلا قوميا . ورائدا يتبوأ مكانا عاليا بين مُجدِّدي الحياة . وأصدقاء الإنسان .

ومعنى ذلك أن يبدأ الكاتب فيدعم استقلاله العقلي .

وهذا يتطلب إحراز أكبر قدر ممكن من السيادة على تفكيره فلا يدعه يضل في زحمة الأحداث . ولا ينوء بحملها الثقيل .

وإذا كان الرأي العام هو الجبهة التي يعمل فيها الكاتب .

وتأثره به أقوى وأسرع من تأثره بأي شيء آخر . فعليه أن يُوقِّي سيادته واستقلاله كل إغراء يغزوه به الرأي العام . . انه لَحقٌ أن الكاتب في حاجة الى حب قرائه وإعجابهم .

لكن الكاتب الأصيل لا يهمه الإعجاب المنبعث عن هوى . . انما يعنيه الإعجاب الذي يُزجيه العقل وتمنحه الرويَّة .

ولأنْ يُعجَب بالكاتب مائة واحدةٌ من الناس لنزاهة عقله وتفكيره ، أكرم له وأعظم من أن تعجب به آلاف كثيرة لأنه يُسلِّيهم ، ويرضي غرورهم ، ويُرفِّه عنهم . .

والكاتب حين يتخلّى عن سيادة فكره للرأي العام يكُون كالطبيب الذي يصف الدواء حسْب هوى المريض ، لا وَفْق حاجة المرَض . .

والكاتب أمين على آلاف العقول التي تصله بها الكلمة . آلاف العقول التي ستقرأ له اليوم . وغداً . وبعد غد ، مَدَى العصور والأجيال . .

ومن ثم يجب عليه ألا يخط بيمينه إلا ما يقتنع بصدقه ، وصوابه ، في غير مَلَق لسلطة الدولة ، أو لسلطان الناس .

ليس معنى هذا ، أن ينفصل الكاتب عن الرأى العام ، أو يستعلي عليه .

كلا . . وإنما معناه كما قلنا . أن يكون الرأي العام

موضوعَ تفكيره ، لا مَصْدَر تفكيره ..

إن الرأي العام كثيرًا ما يكون الحافز الذي يَحفِزُ الكاتب إلى حمل قلمه ، وهذا حسن .. بَيْدَ أنه لا ينبغي أن يتأثر الكاتب به الى الحد الذي يتعرض عنده استقلاله الفكري لما يهدده أو يضائل ولاءه المطلق للحقيقة .

° ° °

ولعل من خير ما يهتدي به الكاتب في حياته الفكرية . هذه الحكمة المضيئة التي قالها « بتهوفن » .. هذا الفنان العبقري الذي كان فيلسوفًا كبيرًا . وان لم يكتب في الفلسفة .

« ألا فَلْنفعل كُلَّ ما في وُسعنا من أَجْل الخير ..

« ولْنُحبَّ الحرية فوقَ كل شيء آخر ..

« ولْنتجنَّب خيانة الحقيقة ..

« ولو كان ثمنُ الخيانة تاجًا وعَرْشا ..

وبعـــــد . . .

انتَظَمَت الصفحات السابقة دفاعَنا عن الكلمة ، وتفسيرنا لحقوقها .

ونعني بالكلمة ، كما أسْلَفْنا ، الفكر في كل مَجالي نشاطه : الفكر الفلسفي ، والعلمي ، والديني ، والسياسي ، والاجتماعي . . .

الفِكْر الذي وُكِلَ إليه منذُ وجد الإنسان ، القيامُ بتوجيه خُطى التقدم وتفجير طاقات الحياة . . !

* * *

وقَصْرُنا الحديث على «حرية الكلمة» لا يعني إغفالَ الحرية كلها في معناها العَميم الشّامل .

فمما لا ريب فيه أن «حرية الكلمة» إنما تبلُغُ أَشُدَّها في زَمَالة الحريات الأخرى .

الحرية السياسية ، التي تحرر الناس من التَّبَعِيَّة ، والخوف . .

والحرية الاجتماعية ، التي تحررهم من الاستغلال والضعف . .

بَيْدَ أننا ركَّزنا على «حرية الكلمة» ، لأنها الموضوع الذي كرَّسْنا له هذا الكتاب.. ولأنها في حقيقتها سِياجُ جميع الحريات الأخرى وسِنادُها..

* * *

ولعلَّنا نكون قد أفلحنا في إبراز الفضيلة العظمى لحرية الكلمة - هذه الفضيلة المُتمثِّلة في قدرتها قَبْلَ سِوَاها ، بل دُون سواها ، على بثِّ الأَمْن والعافية في المجتمع والدولة معًا..

وبالتَّالي ، قدرتها على خَلْق رأي عام ، يُمثل الرصيد الذي لا يفنى ، للأمة ، وللدولة معًا..

فحرية الكلمة أهْدَى سبيلٍ لتوفير الأمن النفسي للفرد ، وللجماعة.

وإذْ كانت سِمَة الأمن ، استخدام الناس فضيلة الشجاعة في التعبير عن أنفسهم ، فإنه مما لا ريب فيه أن هذا الأمْن لن يُظَلِّلَ الجماعة وحدها ، بل والدولة معها - ؛ لأن الشعب الذي تغمره عافية الأمْن والثقة ، والذي لا يفتقد الشجاعة التي يواجه بها حكومته ناقلاً إليها سَرِيرَتَهُ وآراءه.. هذا الشعب لا يمكن أن يكون مصدرَ خطر على حكومته. إلا بالقدر الذي يكون فيه مصدرَ خطرٍ على نفسه وعلى مصيره

سيَّما إذا كانت حكومته التي وفَّرت للأنفس أمْنَها ، وللآراء حرية الجَهْر بها ، تسهر في نفس الوقت على حقوقه

وتُنمّي له انتصاراته .

وإذا كانت «خطيئة» حرية الكلمة ، أنها تجعل المحكوم نِدًّا للحاكم ، فتلك في الحق مَزيَّتُها ، لا نَقيصتُها . . وعَظَمتُها لا خطيئتها . . لأنه كلما ذابت الفوارق السياسية بين الحكومة والأمة ، تربّعت سلامةُ الوطن على عرْش وَطيدٍ راسخٍ من الكفاءَة والقوة ، وشَدَّ أَزْرَ النظام والإنتاج في المجتمع هذه المسئولية المشتركة النابعة من الاقتناع والحرية . .

• • •

وإن «حرية الكلمة» ليتمثَّلُ جوهرها في حقيقةِ أن الصوابَ مَبثوثٌ في سَرائرِ الملايين من البشَر ، وفي آرائهم .

وأن السبيل الأوحد لكشْفِه وتبيُّنِه ، إنما هي المناقشات الحرة المفتوحة .

وما دام الناس جميعهم يتحملون نتائج الصواب والخطأ في حياتهم ، فإن من حقهم البدَهي والطبيعي أن يُشاركوا جميعًا في تمحيص الخطأ واختيار الصواب .

وهذا يقتضي أن يفكروا في حرية ، ويعبروا عن آرائهم في حرية ، حتى يتكَّون لَديْهم رأي عام يُحرز من الحصافة السياسية ، ومن الوعي الاجتماعي ما يجعله قادرًا على فهم قضاياه ، وحَسْم مشاكله ، واختيار مَصيره .

• • •

والرأي العام في أُمَّة مّا ، هو العين التي تُبصر بها . . والأُذن التي تسمع بها . . والسَّاقُ التي تمشي بها . . واليد التي تعمل بها .

أجل . .

الرأي العام ، هو القَدَر الذي يُمسك بمصاير الأمم والشعوب .

والظفر برأي عام مُستنير وشُجاع – لا يقل أهمية عن الظفر بأكثر الحكومات أمانة ، وشجاعة ، وتوفيقًا .

بل إن حاجة المجتمع إلى رأي عام قوي ؛ أكثر من حاجته إلى حكومة قوية .

ذلك ؛ أَن الحكومات تجيء وتذهب . أما الرأي العام فهو باق كالزمن . . وهو الحارس المُقيم الذي لا تنتهي نَوْبة حراسته أبدَ الدهر . وكُلَّما كان يقْظانَ قويا ، عظُم الأمل في أن تبقى الأمة مَهيبةً ظافِرة ، وتأكَّد الأمل في ألاَّ تقوم على رأس المجتمع إلاَّ الحكومات الأمينة ، الحرَّة ، القويَّة .

° ° °

ولَيستْ مصاير الأمم وحدها ، هي المعقودة بنَواصِي الرأي العام القوي في كلٍّ منها . . بل إن مصير العالَم كله والبشرية بأسْرها ، رَهْن بوجود رأي عام أمين وقَويٍّ في

كل شعب وفي كل مجتمع ..

فَمِن مجموع الآراء العامة الحرة ، يتكون الرأي العالمي الحر الذي يستطيع أن يتخذ سبيله إلى غاياته المشروعة العادلة ، فارضًا كلمته على كل سياسي ينحرف ، أو تاجرِ حَربٍ يُخرِّب . ومُحابهًا قُوى التَّثبيطِ والنُّكوص بعزم قوي ، وكلمات مَجلْجِلَة .

نَعم .. إن توفُّر الرأي العام الحر ، واتساع نفوذه ؛ وتكاثرِ نماذجه في الأمم والمجتمعات . أمر ضروري لِحَشْد قُوَى الحياة ، وصَوْن مقادير الحضارة ، وتوطيد دعامات التفاهُم ، والسلام .

وإن إرْبَاءَ عددِ الآراء الحرة في العالَم ، لأَمثَلُ طريق وأجْدَى وسيلة لِجَعْلِ العالَمِ وطنًا صالحًا ، لمُواطنين صالحين .

كتب المؤلف

١- من هنا .. نبدأ .

٢- مواطنون .. لا رعايا .

٣- الديمقراطية ، أبداً ..

٤- الدين للشعب .

٥- هذا .. أو الطوفان .

٦- لكي لا تحرثوا في البحر .

٧- لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء)

٨- معاً على الطريق محمد والمسيح

٩- إنه الإنسان .

١٠- أفكار في القمة .

١١- نحن البشر .

١٢- إنسانيات محمد .

١٣- الوصايا العشر .

١٤- بين يدي عمر .

١٥- في البدء كان الكلمة .

١٦- كما تحدث القرآن .

١٧- وجاء أبو بكر .

١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره .

١٩- كما تحدث الرسول (مجلد) .

٢٠- أزمة الحرية في عالمنا .

٢١- رجال حول الرسول (مجلد) .

٢٢- في رحاب علي .

٢٣- وداعاً .. عثمان .

٢٤- أبناء الرسول في كربلاء .

٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول .

٢٧- .. والموعد الله .

٢٨- خلفاء الرسول (مجلد) .

٢٩- الدولة في الإسلام .

٣٠- دفاع عن الديمقراطية .

٣١- قصتي مع الحياة .

٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت ..

٣٣- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)

٣٤- الإسلام ينادي البشر (تحت الطبع)

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع



* أريد أن أقول للقارىء : إذا كنتَ ستقرأ هذا الكتاب كلمة كلمة ، فعليك أن تناقشه كلمة كلمة .

* إن هذه الصفحات لا تطمع فى أن تعلّمك شيئاً جديداً ، وإنما تطمع فى أن تحفزك إلى تحرير عقلك فى الجهات الأربع ، وتحفزك إلى أن تنمّى لديك فضيلة البحث الحر عن الحق ، وتحفزك إلى حمل أمانة وجودك بأن تناقش كل ما حولك من قضايا الوطن ، وقضايا البشر ، وقضايا الحياة .

خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ ش الشيخ ريحان – عابدين – القاهر